720

روايات عبير

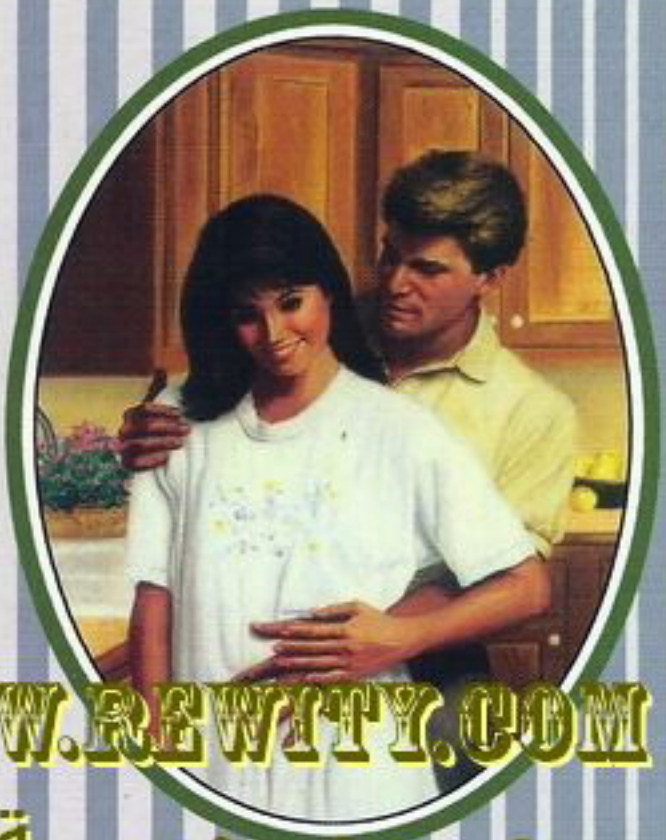

WWW.REWITY.COM

مرمورية

Deborah Cajio

العَاشقَان

الأصليّة

روايات عبير

«العَاشقَان»

«سارة» فتاة تبنَّتْها عائلةٌ قبرصية يونانية وذلك بعد أن تُوفِّي والداها. إلا أنَّ هذه العائلة قد تُوفيتْ أيضًا في حادث طائرة. وكان لهذه العائلة ابنٌ يُدعَى «كارلوس» كان أخوها بالتبني وقد وُلِدَ في «قبرص» وأمضى طفولته في «إنجلترا» وقد انقطعتْ أخباره عن «سارة» لمدة تسْع سنوات. عملتْ «سارة» عند مؤلفٍ لكتب الرحْلات والأسفار مشْهور بعد وفاة والديها بالتبنِّي. إلا أنها تلتقي بأخيها بالتبني في «قبرص» وتعترف له بحبّها ويقع هو أيضًا في غرامها. لكنْ هناك عقبة تظهر في طريق زواجهما ألا وهي «أنولا» خطيبة «كارلوس» والتي تَرفُض أن تفْسخَ الخِطْبة خوفًا من الوحدة، على الرغم من اعترافها بأنها لا تحبّ «كارلوس». فهل توافق «أنولا» على فسْخ الخِطْبة وتتزوج «سارة» بـ«كارلوس»؟

ثمن النسخة

لبنان	3000 ل.
سوريا	100 ل.
الأردن	1.5 دينار
السعودية	10 ريال
الكويت	750 فلس
الإمارات	10 دراهم
البحرين	1 دينار
قطر	10 ريال
مسقط	1 ريال
مصر	6 جنيه
المغرب	30 درهم
ليبيا	5 دينار
تونس	2.5 دينار
اليمن	300 ريال

ISBN 995338055 -4
9 789953 380551

العنوان الأصلي لهذه الرواية
Eye Of The Storm

تأليف
Deborah Cajio

الغلاف بريشة الفنان
Patrice Gordon

WWW.REWITY.COM
مـــرمـــوريـــة

العاشقان

(720)

الناشر
المركز الدولي للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.

الإدارة العامة والتوزيع
تليفون: **00 961 9 212 666** – فاكس: **00 961 9 212 665**
ص.ب **374** جونيه – لبنان
Email: info@inter-press.org www.inter-press.org

وكلاء التوزيع
دار ميوزيك – دار البشير – دار إي بي سي

جميع الحقوق محفوظة للناشر

يمنع منعًا باتًا نقل أي جزء أو قسم من هذا الكتاب وبأية وسيلة مرئية أو صوتية... إلخ
إلا بعد الحصول على موافقة خطية من الناشر

- 1 -

كان معظم سكان مدينة «براكهورست» مجتمعين في القصر الذي أضيئت كل جوانبه للاحتفال بذكرى الزواج الذهبي لجدّي «كولن». النوافذ مشرّعة في تلك الليلة من ليالي شهر نيسان (إبريل)، الحارة بصورة غير اعتيادية. أريج الزهور ينبعث من الحديقة الواقعة على امتداد المبنى الطويل. «كولن» و«سارة» تركا الراقصين وجلسا في الشرفة. جاء خادم حاملا صينية المشروبات المنعشة وقدم لهما المشروب. هزّ «كولن» رأسه وقال:

– خمسون سنة زواج. هل تعتقدين أنهما كانا سعيدين كل هذه المدة؟

ارتسم بريق فرح في عيني «سارة» الرماديتين وأجابت:

– أي جواب تنتظر مني؟ أنت تعرف جيدًا أنني لست بفتاة عاطفية.

نظر إليها عميقًا ومطولا ثم قال:

– تهمك مهنتك قبل أي شيء آخر، أليس كذلك؟ أنت من النوع المثالي للمرأة المستقلة، الواثقة بنفسها... لكنك ستدركين يومًا أنه سينتهي بنا المطاف إلى الزواج. راحت تداعب بشرود أسفل كأسها وتقول:

– هل تعتقد ذلك؟

– سنكتشف يومًا أننا نشبه بقية الناس...

– وننجذب إلى الزواج والأولاد ومباهج الحياة العائلية؟ أدارت وجهها ضاحكة. فكشفت الإضاءة الآتية من الغرفة بشرتها وملامح وجهها

المرسومة بإتقان. وشعرها القصير الأشقر المعقود فوق جبينها العريض الأملس.

– سأعلمك بالأمر عندما أشعر باكتمال هذا التحوّل.

– سأكون على رأس اللائحة، أليس كذلك؟

– ليست هناك لائحة. أصبحت نظرة الفتاة حالمة. أمام عينيها برزت صورة شاب عملاق أسمر ومتين، وجهه يوناني جميل وعيناه خضراوان ساحرتان. كيف أصبح الآن؟ لا شك في أنه تجاوز الثلاثين من عمره. إذا التقيا يومًا ما سيكونان كغريبين. فقد اختفى منذ تسع سنوات دون أن يترك أثرًا. تسع سنوات... كانت «سارة» في السادسة عشرة من عمرها و«كارلوس» في الحادية والعشرين. منذ طفولته كان صبيًا باردًا ومتهكمًا ووقحًا. إنها تتذكر من جديد عينيه القاسيتين، وصوته الهادئ والحاد. قاطع «كولن» أحلامها وسألها:

– فيم تفكرين؟ رفعت عينيها نحوه، فقال:

– لا تقولي شيئًا، أعتقد أني حزرت. تفكرين في عملك، فلا شيء غيره في ذهنك. ظهرت ابتسامة خفيفة على شفتي «سارة» وقالت:

– في الحقيقة كنت تائهة في الماضي. رمقها بنظرة تساؤلية وقال:

– هل كنت تفكرين في والديك؟ هزّت رأسها بشرود فلم يلاحظ رفيقها. هذه الحركة. فأضاف:

– لا تتكلمين أبدًا عن نفسك أو بالكاد. كل ما أعرفه هو أن عائلة قبرصية يونانية قد تبنتك. وقتل والداك بالتبني في حادث طائرة عندما كنت في الثامنة عشرة من عمرك. كما قلت لي أيضًا إنه كان لهذه العائلة ابن

لم يظهر منذ مدة طويلة. هذا كل ما أعرفه عنك. حملت «سارة» كأسها لكنها لم تشرب منها. فهي و«كولن» صديقان منذ ست سنوات. أي منذ الفترة التي بدأت فيها العمل عند عمه الكاتب المعروف «جيلبير هولغروف» الذي يؤلف كتب الأسفار المشهورة في العالم كله. كانت «سارة» تحب عملها لأنه يتيح لها السفر. تنزل في الفنادق الفخمة وتلتقي بالأشخاص المثقفين والممتعين. وأينما ذهبت يكون لها أصدقاء جدد، سعيدة وراضية بقدرها، تشكر السماء لأن «جيلبير» اختارها من بين خمس عشرة فتاة لتكون سكرتيرته الخاصة.

السنة الفائتة ذهبا إلى «تركيا»، والسنة التي قبلها أمضياها في «مصر»، وبعد أسبوع سيذهبان إلى «قبرص». وهناك سيسكنان في فيلا واسعة في قرية بالجبل تدعى «لابيتوس». إنه مكان أخضر حيث الشلال ينبثق من الصخور الكلسية ويروي الأرض القاحلة. و «سارة» تنتظر هذه الرحلة بفارغ الصبر، خاصة لأنها تزور الفنادق في إقامتها هناك. وحسب الصور العديدة والملونة، أدركت «سارة» أن الفيلا التي ستسكنها مع الكاتب هي من أفخر ما بني في أرجاء منطقة «كيرينيا».

تقع الفيلا على سفح جبل مرتفع. بيضاء ودارها مبنية على أعمدة وقبب. الشرفات تحيط بها، وكذلك حديقة رائعة تنمو فيها أشجار النخيل، وعدد لا يستهان به من الأشجار الوارفة الغريبة. الغرف الأساسية تطل، من الجهة الشمالية، على منظر رائع للقرية. وأشجار الحمضيات المختلفة الأنواع تمتد حتى الساحل الرملي وما بعد البحر المتوسط، حتى جبال «تركيا». وهذه الفيلا تخص صديق «جيلبير»

الأمريكي الثري. أعاره إياها لأنه سيقوم بزيارة طويلة إلى «كاليفورنيا». قطع «كولن» حبل أفكار «سارة» وتنهد دون صبر. فالتفتت نحوه. إنه دائمًا معها عندما تكون في «إنجلترا» خلال زيارة قصيرة. وتتكل عليه ليرافقها إلى الزيارات والسهرات. ومنذ وقت قصير بدأت «سارة» تشعر بضرورة التحدث إليه عن مشاعرها وحياتها الخاصة. بدأت تقول والكأس تدور بين أصابعها بشرود:

– ترى الأمر غريبًا أن تكون العائلة التي تبنتني من الجنسية القبرصية اليونانية...

– طبعًا وكم رغبت في أن أطرح عليك بعض الأسئلة حول حياتك الخاصة، لكنك كنت تفهمينني بطريقة غير مباشرة. إنك مصرة على عدم الكلام في هذا الموضوع. نعم، «كولن» على حق. لقد حافظت على صمتها لأنها كانت ترغب في نسيان مرحلة غير مفرحة من حياتها، لكنها اليوم قررت بدء الكلام. فأخبرت «كولن» بأن والدتها ماتت بعدما جاءت بها إلى الحياة. وبعد وقت عرف والدها أنه مصاب بمرض لا دواء له. ومن شدة قلقه، ألحّ على أصدقائه القبارصة، «بانوس» و«ستيللا أنجلوس»، أن يتبنيا ابنته.

كان «بانوس» عرّاب «سارة». وبالنسبة إلى المواطن القبرصي، هذا يعني تحمل مسؤولية كبيرة. فعليه أن يربي الولد الذي يرعاه إذا تيتم وبما أن «بانوس» وزوجته كانا قد حصلا على الجنسية البريطانية تم التبني بسهولة. ولم تعش مع والدها بعد التبني أكثر من شهر واحد، أي إلى حين وفاته من جراء مرضه المزمن. قطّب «كولن» حاجبيه وقال:

– يا لهذه المأساة! أنت لا تتذكرين والديك الحقيقيين. أشارت إليه «سارة» بحركة سلبية. سكت برهة ثم فوجئ بتعبير غريب يرتسم على وجه الفتاة. فسألها بفضول:

– هل كنت سعيدة مع عائلتك الجديدة؟ احمرّت قليلا وفكرت في أنه ربما أخطأت في التحدث عن أسرار حياتها الماضية. كيف باستطاعتها التكلم عن والدي «كارلوس» دون أن تنقدهما غير أنه كان من الصعب أن تتراجع وتعدل عن مواصلة الحديث، فأكملت تقول:

– والداي بالتبني كان لديهما ولد... في السن الخامسة من عمره. قاطعت نفسها ومرّ على وجهها بريق ندم وحسرة، ثم تابعت تقول:

– لو كان «كارلوس» أصغر سنًّا أو أكبر سنًّا مما كان عليه، لربما كان الوضع مختلفًا. وضعت «سارة» الكأس التي لم تشرب منها، على الطاولة وأضافت:

– لم يكن والداه قد صمما على إنجابه... قاطعها «كولن» قائلا:

– كيف تمكنت من معرفة ذلك؟

– إنه مجرد حدس واستنتاج. فهمت هذا الأمر بعدما كبرت، عندما كنت أبحث في داخلي عن السبب الذي جعل «كارلوس» وأنا لم يحببْ أحدنا الآخر.

– هل هذا هو السبب لعدم حدوث مقابلات بينكما الآن؟ هزّت رأسها وتابعت:

– تزوج «بانوس» بـ«ستيللا» عندما كانا في سن الثامنة عشرة، وكان زواجهما مبنيًّا على الحب. وبتّ متأكدة أنهما ندما على الإنجاب

ولم تمر سنة على زواجهما. ولما أصبح «كارلوس» في سن الفهم، أدرك بصورة غريزية أن والديه لم يرغبا فيه. نما وكبر بعيدًا عن حنانهما. منذ ولادته كانت تهتم به مربية جاءت خصيصًا من أجله. ولما كبر والداه في السن، أدركا خسارة عاطفة ابنهما. حينئذ قررا التعويض عن خطئهما، لكن كان قد فات الأوان، ذلك أن «كارلوس» أصبح منغلقًا على نفسه. ولا مجال لإصلاحه. توقفت لحظة لتبحث عن كلماتها ثم تابعت تقول:

– أعتقد أنهما فرحا لتبنيهما ولدًا آخر. صرخ «كولن» مندهشًا:

– تريدين القول إنهما تبنياك بتحدٍّ.

– ليس تمامًا. هذا واجبهما في كل حال. لكني أعتقد أنهما كانا حزينين لعدم تمكنهما من استمالة عطف وحنان ابنهما. فحوّلا عاطفتهما نحوي وليبا كل نزواتي. كنت أحصل على كل ما أرغبه. حصان، دروس رقص، مجوهرات... كانا يدفقان عليّ الهدايا. وهذا شيء غريب وأحمق.

– و... «كارلوس»؟ أطلقت زفرة عميقة وقالت:

– كانا يلهوان بمساعدتي وتفضيلي ليلحقا به الأذى والضرر. كنت أملك الألعاب الجميلة والفاخرة بينما هو يتلقى الألعاب العادية القليلة، وبطبيعة الحال، بدأ الصبي يكرهني.

– قلت لي، إنه أدرك أن والديه لم يرغبا في إنجابه قبل مجيئك إلى العيش معهم.

– صحيح. لكن لما كبر في السن، راح يفكر فيما جرى واعتبر مجيئي

للعيش معهم بداية عذاباته ومأساته.

– أفهم الآن ما كنت تقصدين منذ قليل. لو كان «كارلوس» في سن أكبر مما كان عليه عندما دخلت المنزل، لتذكر أن والديه رفضاه قبل مجيئك، ولو كان أصغر سنًّا لما تذكر انضمامك إلى العائلة. هزّت رأسها وموسيقى الفالس تحيط بهم آتية من صالة الاحتفال. أصغيا لحظة إلى الموسيقى ثم تابعت «سارة» الكلام وقالت:

– دخل «كارلوس» المدرسة الداخلية في الثانية عشرة من عمره. ولم أكن أراه إلا خلال العطل المدرسية. شيئًا فشيئًا بدأت أعي الوضع. وكنت مستاءة جدًّا. في أحد الأيام، في عيد الميلاد بالذات، كنت يومها في العاشرة من عمري و«كارلوس» في الخامسة عشرة، تلقيت هدايا باهظة ومختلفة بينما لم يتلق «كارلوس» سوى دفتر وقلم حبر. لا شك في أن الوضع كان مقيتًا، فلم يتوقف لحظة عن النظر إلى الهدايا التي تلقيتها. ولما عاد إلى المدرسة بعد نهاية العطلة، ترك دفتره وقلمه في المنزل. قال «كولن» باشمئزاز:

– إنهما حقًّا شخصان غريبان لا يملكان بصيص عاطفة. كيف يمكنهما معاملة ابنهما هكذا؟ هزت «سارة» رأسها بإرهاق وقالت:

– في هذا الميلاد بالضبط، أدركت حقيقة الوضع، وحاولت بعدها التقرّب إلى «كارلوس» أكثر من قبل. أردت أن أكون صديقته. أنت تعرف كيف تتصرف الأخت الصغيرة مع أخيها الكبير... أو ربما لا تعرف! ضحكت «سارة» لكن «كولن» أجابها بلطف:

– أعتقد أن باستطاعتي تصوّر الوضع.

– حسنًا إذن، حاولت التقرّب إليه لكن فات الأوان، فكان منغلقًا وراء درع كتوم. تعيسًا إلى درجة كبيرة... انقطع صوتها ولمعت عيناها انفعالا ثم تابعت تقول:

– فعلت كل ما بوسعي... لكنه كان يبقى في المدرسة الداخلية طيلة الفصل الدراسي، وخلال العطل المدرسية، ولم يكن الوقت يسمح لي أن أوفق في محاولتي لاستمالته. ولما أصبح في الثامنة عشرة من عمره، ترك المنزل ولم أره إلا نادرًا؛ لأنه لم يكن يزور والديه إلا نادرًا جدًّا. كنت أزوره في شقته، لكن استقباله لي لم يكن مقبولاً أو مضيافًا.

– هل طردك؟

– كلا. لم نكن نتشاجر أبدًا. مرارته كانت تخلق حاجزًا بيننا لم نتمكن من اختراقه. انحنت لتأخذ كأسها وشربت بشراهة كأنها تحتاج إلى استعادة قواها قبل أن تتابع الحديث:

– في سن الحادية والعشرين، تعرف إلى فتاة إنجليزية وتزوجا بعد أسابيع قليلة.... انطفأ صوتها الناعم. فمحاولتها اليائسة لتعوّض الظلم الذي كان «كارلوس» ضحيته أدت إلى ازدياد حبها له وعاطفتها نحوه. حينذاك كانت تتصور أن ما تشعر به في داخلها لم يكن سوى عاطفة أخوية، لكن هذا الشعور ازداد بالتدريج وأصبح قويًا وعنيفًا ولم تفهم الحقيقة إلا يوم عرّفها «كارلوس» إلى «أليسون». قال «كولن» حالمًا:

– لماذا تزوج بهذه السرعة؟

– لأنه شعر لأول مرة أن شخصًا ما يُظهر له عاطفة صادقة. فانصبّ

على هذا الحب بنهم.

– كيف كانت «أليسون»؟ رفعت كتفيها وأجابت مبتسمة:

– من نوع الدمى السريعة العطب.

– هل كانا سعيدين؟

– لا أعرف، لكن آمل ذلك من كل قلبي. لم أره منذ زواجه لم يكتب إليّ أحد من عائلته.

– ألا تعرفين أين يسكن؟ هزت «سارة» رأسها وقالت:

– عندما مات والداه، المحامي المكلف وجد له أثرًا في «اليونان»، لكنه لم يحضر الدفن. أما بالنسبة إلى الوصية... وفقدت «سارة» برودة دمها الاعتيادي وبلعت ريقها بعصبية وقالت:

– رفض أن يقبل مني المال، ولم يعترض على محتوى الوصية. فتح «كولن» عينيه اندهاشًا وقال:

– تقصدين أنهما... لم يورثاك كل شيء؟

– بلى، ورثت كل ثروتهما ومبلغًا كبيرًا. لكني فقدت حينذاك كل أمل. كتبت مرارًا لـ«كارلوس» لكنه لم يرد عليّ أبدًا. ومرة أعيدت رسالتي، بعدما كان «كارلوس» قد غيّر عنوانه. رمقها «كولن» بنظرة ثاقبة وقال:

– يبدو أنك حزينة لأنك فقدت كل اتصال به. هل مازلت تكنين له المحبة؟ أجابت بهدوء:

– لقد نشأنا وترعرعنا معًا. تنهّد «كولن» وقال:

– على كل حال، لا يبدو أنه أحبك ومن الأفضل لك أن تنسي هذه

المرحلة الكئيبة من حياتك. تردد قبل أن يضيف:

– والمال؟

– أودعته في أحد المصارف وأرفض كليًّا أن أمدّ يدي إلى هذه الثروة.

وبهذا الرد لم يفاجأ «كولن» وكان نهاية لهذا الحديث. وصل مدير «سارة» ترافقه ابنته «أودري» وصديقتها «دافنيه». نهض «كولن»، وجاء خادم يقدم للجميع المشروبات المنعشة على صينية من الفضة. صرخت «دافنيه» تقول وهي تنظر بإلحاح إلى «كولن»:

– إنها حفلة رائعة! لكن «كولن» نظر إلى «سارة» ثم راح يتكلم إلى عمه ويقول:

– أنت تفكّر في الكتاب الجديد الذي ستحققه عن «قبرص»، أليس كذلك؟

– بعد أسبوع من الآن سنبدأ أنا و «سارة» بالعمل الجدي. ابتسم «جيلبير» وهو ينظر إلى سكرتيرته فردّت عليه بالمثل. منذ البداية وهما متفقان. «جيلبير» رجل طويل القامة، أشيب، ذو وجه نحيف، يتمتع بصبر لا حدود له. مرح ومزاجه طيب دائمًا. مضت حتى الآن ست سنوات على «سارة» وهي تعمل معه. ولم يتفوه أبدًا بكلمة تسيء إليها. تدخلت ابنته «أودري» في الحديث وقالت:

– كم أحسدك يا«سارة». دائمًا مسافرة وبرفقة الرجل الذي أحبه وأعجب به! رفع والدها حاجبًا وقال:

– إلى اليوم الذي التقيت فيه بزوجك الماهر! قال «كولن» ضاحكًا:

– تخلّيت عن الحياة الحلوة لتتزوجي. نظر باتجاه «سارة»، فردّت

على ضحكته بالمثل. لو لم تتزوج «أودري» التي كانت سكرتيرة والدها، لما تمكنت «سارة» من الحصول على هذه الوظيفة التي يحسدها الجميع عليها. سألت «دافنيه» الكاتب وهي تبتسم إلى «كولن»:

– أخبرنا بهذه الفيلا الرائعة التي ستسكنها خلال إقامتك في «قبرص».

– في الحقيقة، لم أرها بعد. كل ما أعرفه أنها مريحة وهادئة. سألت «أودري» بعد تردد واضح:

– هل بإمكاننا جميعًا أن نمضي هناك بعض الأيام معكما؟ وسرعان ما ندمت على هذا السؤال لأنها تعرف إلى أية درجة يستاء والدها من الإزعاج عندما يكون منغمسًا في الكتابة. أجابها باختصار:

– ربما. وهذا الاختصار دليل واضح على أنه من الضروري على ابنته أن تلغي هذه الخطة من رأسها! ظل الحديث يتتابع بلا رابط إلى أن دخل الجميع، بعد ربع ساعة، إلى الصالة الكبرى.... حلقت الطائرة بشكل دائرة فوق مطار «نيقوسيا» قبل أن تحط على المدرج بهدوء. الصديق الأمريكي الذي أعار «جيلبير» منزله ترك له سيارته في مرآب المطار؛ كي يستعملها خلال إقامته في الفيلا. المرور في الجمرك لم يأخذ وقتًا طويلا. وبعد قليل كانا يجتازان مدينة «نيقوسيا» الجميلة وجدرانها القديمة وشوارعها ذات الخطوط الثلاثة. وبدت ذات تناقضات عنيفة لأن الغرب دخل بقوة إلى هذه المدينة الشرقية القديمة. المنازل الجميلة البيضاء وقبب الجوامع، تبرز بوضوح تحت السماء الزرقاء. السيارات الأمريكية الضخمة تجتاز عربة يقودها فلاح وحصانه. الفتيات

الأنيقات يمشين بتألق قرب النساء العجائز اللواتي يرتدين الفساتين السوداء. أخذ «جيلبير» مخرج «كيرينيا» ليغادر العاصمة القبرصية. وكان عليهما أن يظهرا جوازي سفرهما إلى ضابط قبرصي رسمي سألهما بعد أن ردّ إليهما الجوازين:

– هل جئتما إلى «قبرص» لتمضية العطلة؟

– سنبقى هنا سنة تقريبًا. ابتسم لهما الضابط وقال:

– هل تعملان هنا؟ أجاب «جيلبير» بمحبة ولطف:

– سنكتب كتابًا عن جزيرتكم الحلوة.

– أهلاً وسهلاً بكما في «قبرص». نحن مسرورون لاستقبالكما. أجابته «سارة» و«جيلبير» في وقت واحد:

– شكرًا. ابتعد الضابط بعد أن حيّاهما. فقال «جيلبير» مسرعًا:

– إذا كان سكان «قبرص» يشبهونه، فسنمضي وقتًا ممتعًا لن ننساه أبدًا.

– نعم، إنه لطيف جدًا.

– ويتكلم الإنجليزية بطلاقة. أشعر بأنني كسول عندما ألاحظ أن الأجانب يجتهدون في دراسة لغتنا.

– وأنا مثلك أيضًا. ربما بإمكاني أن أتعلم شيئًا من اللغة التركية خلال إقامتي هنا.

– واللغة اليونانية أيضًا. ذكرته بكبرياء خفيف قائلة:

– نسيت أني أتكلم اللغة اليونانية قليلا. ويعترف اليونانيون بأنفسهم أن لغتهم أصعب بكثير من لغتنا. لم يعلق «جيلبير» على كلام الفتاة.

فاجتازا قرية تركية تدعى «غونيللي». الرجال السمر يجلسون في شرفات المقاهي والنساء يرتدين الجلباب الأسود ويحملن أشياء ثقيلة. شاهدا قرى صغيرة منتشرة في سهل «الميساوريا». المآذن العالية تنتصب فوق البيوت القرميدية. وفي هذه المرحلة من السنة، الأرض تتألق بكل مجدها الربيعي، الأرض الخضراء المرصعة بالبقع الملونة: المارغريت الأصفر والخشخاش الأحمر... ومن بعيد ترى الحقول الواسعة حيث ينبت القمح بوفرة. قالت «سارة» دون حماس:

– كان يجب أن أدوّن بعض ما رأيته. نظر إليها «جيلبير» مبتسمًا وقال:

– نعم، كان يجب عليك أن تدوني بعض المعلومات، لكن الظاهر أنك غير متحمسة.

– المنظر جميل للغاية، أشعر برغبة في النظر والمشاهدة فقط.

– إذن، شاهدي يا ابنتي. سنعود لنأخذ الصور وندوّن المعلومات متى حصلنا على إذن بالتصوير. أشارت «سارة» بيدها إلى المنظر الجميل الذي يحيط بهما وقالت:

– هذا المنظر لن يدوم طويلا. سيزداد الحر يومًا بعد يوم. ومتى نضجت سنابل القمح، لن ينبت شيء حتى هطول أمطار الخريف في أواخر شهر تشرين الأول (أكتوبر) وأوائل شهر تشرين الثاني (نوفمبر).

– سيدوم هذا المنظر حتى نتمكن من تنفيذ أهم ما لدينا من عمل. وسنظل هنا حتى أوائل الربيع من السنة المقبلة. والآن تجتاز السيارة الطريق المحدود من جانبيه بصفين من الأشجار. فالظل مريح بعد

اجتياز منطقة مشمسة شحّت فيها الأشجار. سألها «جيلبير» عندما وصلا أمام مقهى صغير يقع وسط العشب الأخضر:

– هل تحبين أن تشربي شيئًا؟

– نعم، شكرًا. إنني عطشة جدًّا. جلسا في المقهى، وفي الحال اقترب منهما الخادم مبتسمًا. فقال له «جيلبير»:

– هل هذا العشب لك؟ كيف ينبت هنا؟

– هل هذا يدهشك؟ ضحك الرجل باكتفاء وتابع:

– الجميع يندهش للأمر. من النادر رؤية العشب الأخضر في «قبرص». لكني أحب العشب كثيرًا وبما أن الماء وافر، فليس هناك من صعوبة.

قال «جيلبير» وهو يرفع حاجبيه:

– ليس هناك من صعوبة؟ كم تمضي من الوقت لتروي هذا العشب؟

– ساعة واحدة في اليوم. هذا المنظر يستحق أن نكرّس له كل هذا الوقت. ماذا بإمكاني أن أقدم لكما؟ احتسيا عصير الليمون الذي لم يسبق لـ «سارة» أن تذوقت مثله من قبل. فالحمضيات تنبت في الحديقة الواقعة خلف المقهى. دفع «جيلبير» الحساب ونهض وقالا معًا:

– شكرًا، سنعود مرة أخرى. سأل الخادم وهو ينظر إليهما بفضول، بينما كان «جيلبير» يعطي «سارة» حقيبة يدها:

– هل جئتما لتمضية عطلة هنا؟

– كلا، نحن هنا لنضع كتابًا.

– عن «قبرص»؟ هزّ «جيلبير» رأسه إيجابًا، ففرح الرجل وقال:

– أهلاً وسهلاً بكما في جزيرتنا. قال «جيلبير» عندما صعد إلى السيارة:

– يُهيَّأ إليَّ أن الجميع سيستقبلوننا بأذرع مفتوحة. هذا البلد يفتنني حتى الآن.

– وأنا كذلك. شعرت بحماس وفرح لم تشعر بهما من قبل. ربما لأن هذا الاتصال الأول مع أهل الجزيرة يبشر بإقامة حلوة. ومع ذلك كانت تشعر بقناعة غريبة بأن هذا الشعور غير مرتبط بلطف الناس وحسن ضيافتهم. بعد دقائق قليلة، اتجهت السيارة نحو الممر الجبلي الذي يقطع خاصرة سلسلة جبال «كيرينيا». وعلى قمم هذه الجبال ينتصب قصر «هيلاريون» وقصر «بوفافنتو»، اللذان يعودان إلى عهد الصليبيين. وهنا كان الهواء مليئًا برائحة الأشجار وعطر اللاوندا البرية والصعتر. وما إن أطلاّ على سفح الجبل حتى سارا نزولا من جديد. ونحو الشمال كانت قمم الجبال الخضراء مغطاة بأشجار السرو والخرّوب. فجأة أطلقت «سارة» زفرة استغراب ودهشة عندما ظهرت أمامها مدينة «كيرينيا». القصر يطل على المرفإ، والبحر الأزرق يمتد حتى جبال «تركيا» وقممها البيضاء تلمع تحت أشعة الشمس.

– يا له من منظر خلاب!

– إنه رائع حقًّا! انعطف «جيلبير» وإذا به يصل إلى علوّ رجل يمتطي حمارًا، وزوجته تمشي بقربه حاملة كيسًا ثقيلاً بيد وطفلاً على ذراعها. قالت «سارة» بجفاف:

– بعض العادات والتقاليد هي واحدة في كل البلدان الشرقية. قهقه

«جيلبير» ضاحكًا وقال:

– الرجل هو كل شيء والمرأة لا شيء. هذا ما تفكرين فيه، أليس كذلك؟

– هذا يجنني!

– يجب أن تكوني معتادة هذا الأمر. سكتت وراحت تفكر في «كارلوس». كان والداه قبرصيين يونانيين ولد في «قبرص» وأمضى طفولته في «إنجلترا». ربما بالنسبة إليه، التقاليد والعادات الغربية محت عنده الشعور بالتفوق الرجولي الخاص بالشرقيين.

أصبحت «كيرينيا» وراءهما. ولم يعد أمامهما إلا بضعة كيلومترات كي يصلا. كانت السيارة تسير على طول الشاطئ، البحر على يمينهما والتلال الخضراء على يسارهما. ثم اتخذت السيارة طريقها الممتد عاليًا بين المراعي وحقول الحمضيات. وفجأة أوقف الكاتب السيارة أمام بريد القرية؛ ليسأل عن الطريق، فأثارا اهتمام وفضول الرجال الذين كانوا يشربون القهوة خارجًا ويلعبون الورق. كل الأحاديث توقفت و«سارة» كانت محط اهتمام الجميع. عشرات النظرات راحت تحدق إليها مفصلا، وهي تبتسم لهم بلطف. لن تفهم أبدًا أي فرح يشعرون به عندما يراقبون تفاصيل جسمها ولا شك في أنهم يتساءلون عن علاقة «جيلبير» بسكرتيرته.

كان مستخدم البريد القبرصي اليوناني شابًا ومحبًا. يتكلم اللغة الإنجليزية بطلاقة. دلّهما على الطريق المؤدية إلى الفيلا البيضاء الواقعة على رأس التلة. وبعد دقائق معدودة استقبلهما «كيريا» و«دافوس

خريستو»، الزوجان المستخدمان عند صديق «جيلبير». الفيلا كانت حقًا رائعة. على الشرفة تنبت نباتات العربيشة ذات الألوان الفاقعة بالأحمر والليلكي. وداخل المنزل كل وسائل الراحة العصرية والتكييف موجودة. ابتسم «دافوس» وهو يحييهما قائلاً:

– أهلا وسهلا بكما في جزيرتنا. كان قصير القامة، ضخم الجثة. شعره الأسود يرجع إلى الوراء مظهرًا جبينه العريض. يبلغ حوالي الأربعين من العمر بينما زوجته لا شك تصغره بعشر سنوات على الأقل. قالت الزوجة شيئًا باللغة المحلية، فأسرع الزوج يقول:

– زوجتي لا تتكلم الإنجليزية إلا قليلا. إنها تتمنى لكما الرحب والسعة كما هي سعيدة للتعرف إليكما ومستعدة لتأخذ الآنسة إلى غرفتها. تبعت «سارة» «كيريا». وصعدا معًا سلمًا طويلا أدى بهما إلى غرفة بيضاء اللون. النافذة الواسعة تطل على الشمال. ومن النافذة الجانبية رأت حديقة الفيلا المزروعة بمختلف أنواع الأشجار المثمرة، الحمضيات والتين والرمان وغيرها من الفواكه المختلفة. قالت «سارة» بينما كانت «كيريا» تودعها:

– شكرًا كثيرًا. أوه... «افخاريستو بولي». ابتسمت المرأة وغادرت الغرفة. توجهت «سارة» إلى الباب الزجاجي وخرجت إلى الشرفة المليئة بالأزهار. ظلت واقفة تتأمل شجر الحمضيات وتنظر إلى البحر الممتد بعيدًا إلى ما وراء المرج. رنّ جرس الغداء في الوقت الذي كانت تستعد فيه «سارة» للنزول فكانت قد استحمت وارتدت فستانًا قطنيًا واسعًا. وكان «جيلبير» جالسًا في الصالون فأشار إليها بالاقتراب وهو

يقول:

– ما زال أمامك الوقت لتناول كأس صغيرة الآن. بعد تفكير هادئ، توصلت إلى الاقتناع بضرورة أخذ إجازة مدتها أسبوعين قبل البدء في العمل الجدي. خلالها يمكننا أن نستكشف المنطقة مليًا ودون عجلة.

قدّم لها الكأس وقال رافعًا كأسه:

– لنشرب نخب نجاح إقامتنا في «قبرص»!

– أسفارنا إلى الخارج دائمًا مكللة بالنجاح. آمالنا لم تخب حتى الآن.

ظل برهة صامتًا، يعض على شفته ويفكر. أخيرًا أعلن قائلا:

– هذه المرة، سأكتب شيئًا آخر، مختلفًا عن السرد الآلي للرحلة. أشعر بأن هذه الجزيرة تستحق عملا مبدعًا... لنقل... عملا فنيًا.

فتحت «سارة» عينيها الواسعتين مندهشة. فهي تعرف أن «جيلبير» يعمل على هذه الكتب ليربح المال والشهرة. ولم يسبق أن دخلت العاطفة في إنتاجه. فقالت له:

– لا أعرف أبدًا ما يجول في خاطرك.

– ولا أنا أعرف. لذلك أريد أن أنتظر قليلا قبل البدء في الكتابة. أشعر بأن عليّ أن أترك نفسي تنغمس في الجو القبرصي قبل مباشرة التأليف والخلق. وعلى الرغم من اندهاشها، وافقت الفتاة على العطلة التي ستتيح لهما اكتشاف الجزيرة. وعبرت عن رأيها بامتنان وطيب خاطر.

وفي صباح اليوم التالي، استيقظت «سارة» في الخامسة بعدما دخل نور الشمس إلى غرفتها. وبقيت ممددة برهة صغيرة تستمتع بهذا الجو

الهادئ، ثم قررت النهوض. ولشدة دهشتها وجدت «جيلبير» في الصالون يقرأ كتابًا. سألها ضاحكًا:

– ألم تستطيعي النوم، أنت أيضًا؟

– بسبب نور الشمس. كان يجب أن أتذكر إغلاق النوافذ الخشبية.

– لا أتفق معك على هذا. البقاء في السرير في صباح كهذا، إضاعة للوقت. كان يتأمل المنظر الأخضر الممتد حتى الكنيسة المنتصبة وسط آثار المدينة التي كانت قديمًا مزدهرة وتابعة لملكة «لابيتوس» القديمة.

أضاف «جيلبير»:

– على كل حال، سنضطر إلى بدء العمل باكرًا في الصباح. فالحر سيكون قويًا في فترة ما بعد الظهر. هزت رأسها. فهي معتادة الحياة في الشرق وتعرف أن خلال فصل الصيف، يتوقف العمل عند الظهر ليستأنف من جديد في الساعة الرابعة. لكن «جيلبير» لا يستأنف العمل متى توقف. كان يقول دائمًا إن عقله قد شاخ. لقد تناول فطور الصباح باكرًا، وفي السابعة ذهبت «سارة» للتنزه على الطريق الضيقة التي سلكتها السيارة بالأمس. راحت تنظر باستحسان إلى المنظر الأليف الذي يبدو لها جديدًا كل مرة. البيوت البيضاء والزرقاء مثل «اليونان»، والمنازل النموذجية القبرصية المطلية بالكلس (الجير) المستخرج من جبال «كيرينيا»، والتي أصبح لونها بلون الصلصال مع مرور الزمن. لكن المنازل جميعها تتشابه من الخارج. فمداخلها مزينة بالزهور المختلفة ذات الألوان الزاهية والعديدة.

على يمين الطريق تمتد أشجار الحمضيات إلى السهل الضيق الساحلي.

WWW.REWAYAT.COM

لم تلتق «سارة» إلا بعدد ضئيل من الناس، ذلك لكونها بعيدة عن قلب المدينة. غير أنه، من وقت إلى آخر، تظهر مجموعة من التلامذة، يرتدون الملابس الزرقاء، ويحملون حقائبهم المدرسية على ظهورهم. في «قبرص» تبدأ المدارس في ساعة مبكرة وتنتهي وقت الغداء. كان التلاميذ والمارة ينظرون إلى المرأة الأجنبية بعيون واسعة ولما كانت تحييهم قائلة «كاليميرا» بابتسامة كانوا يردون عليها بالمثل. وبعضهم كان يسألها عن اسمها.

عرفت منهم أنهم يأخذون دروسًا باللغة الإنجليزية في المدرسة فردت: «اسمي «سارة»»؛ لتسهّل عليهم فهمها. وكانوا يرددون «سارة» ثم يضحكون عاليًا، حتى تختفي عن أنظارهم. تبتسم «سارة» وتكمل طريقها، فقريبًا جدًا سيعرف مدير المدرسة أن فتاة إنجليزية تتنزه في القرية في السابعة والنصف صباحًا. وصلت إلى مفرق طرق وترددت لحظة قبل أن تختار الطريق المتجهة نحو اليمين. لكنها ما لبثت أن تساءلت بعد قليل عن سبب اختيارها هذا الاتجاه، فأدركت أن ذلك عائد إلى سماعها خرير المياه التي تطفر على الصخور، أو ربما إلى منظر الأشجار الرائعة والنباتات المتسلقة. أم يا ترى بسبب ذلك المنزل الرائع الذي أعطاها رغبة في النظر إليه من قريب؟! كان هذا المنزل مبنيًا وسط حديقة كبيرة ومتسمًا بلمسات النبل والفخامة. وكان أمام المنزل رواق من الطراز التركي غابت الشمس عنه وهو في الظل الآن. اقتربت «سارة» وتوقفت أمام الباب الحديدي وأطلقت زفرة تعجب لرؤية العشب الأخضر الكثيف الذي يكلف أموالا طائلة. غير أنها

سرعان ما رأت شلالا طبيعيًا يهبط من الصخور التي تحيط بالمنزل في الجهة الجنوبية. هناك سبيل ماء ينبثق من بين الأشجار. وفي كل الحديقة تتفتح الأزهار، وبعض أوراقها يتساقط كالفراشات فوق حوض السباحة.

وبينما كانت «سارة» تستعد للعودة، شاهدت فتاة صغيرة في حوالي الخامسة من عمرها، تخرج من الرواق. فستانها الأبيض المنشى، لا غبار عليه. شعرها الأسود المجدول مربوط بأشرطة حمراء. حذاؤها أبيض جديد. تحمل محفظة جلدية على ظهرها وكيسًا أبيض صغيرًا بيدها. هبطت السلالم، فابتعدت «سارة» وسمعت صوت امرأة تقول بلغة إنجليزية متقطعة:

– انتبهي ألا توسخي ثيابك. تعرفين جيدًا ما يكون قصاص والدك إذا رأى بقعة وسخ على ثوبك. لم ترد، وبعد قليل كانت جالسة في سيارة كبيرة قرب سائق. مرت «سارة» بجانب السيارة، فالتقت نظراتها بنظرات الفتاة الصغيرة وأصيبت بارتعاشة في ظهرها. كانت ملامح الفتاة نبيلة، بجبينها العريض وشعرها الأسود وفمها الممتلئ... لكن عينيها... وحدهما لفتتا انتباه «سارة» وجعلتاها تشعر باضطراب قوي... عينان خضراوان غامقتان...

- 2 -

ولدى عودتها إلى الفيلا، فوجئت «سارة» بزائر يتحدث إلى «جيلبير».

نهض الرجلان لدى دخولها الدار. فقال «جيلبير» مشيرًا إلى الرجل الغريب:

– أقدّم لك السيد «برودهورست». وهذه «سارة أنجلوس»، سكرتيرتي.

– «أنجلوس» إنه اسم عائلة يونانية. لكنك إنجليزية، أليس كذلك؟

شرحت له وهي تسلّم عليه باليد:

– لكن العائلة التي تبنتني هي قبرصية يونانية.

– صحيح؟ أنت إذن في الوطن؟ ابتسمت وهزت رأسها وقالت:

– إنني أزور «قبرص» للمرة الأولى. وعائلتي بالتبني كانت تعيش في «إنجلترا» ومعها الجنسية البريطانية.

– آه، فهمت. أخبرها «جيلبير» بأن السيد «برودهورست» يسكن في قرية «أيوس ميخاليليس»، على بعد كيلومتر واحد من «لابيتوس». لقد علم بوجودهما في الجزيرة وجاء ليدعوهما إلى حفل بسيط، حيث بإمكانهما التعرّف إلى أشخاص بريطانيين وإلى أصدقائه العاملين بالسفارات وبعض القبارصة والعسكريين التابعين للقاعدة العسكرية في «ايبيسكوبي».

– هذا لطف منك يا سيد «برودهورست»...

– أرجوك أن تناديني باسمي الصغير، «كورني». هنا لا ننادي الأشخاص بأسماء عائلتهم. أتمنى أن يكون بإمكاني أن أدعوك «سارة». هزّت رأسها موافقة. فتابع يقول:

– سوف أنظّم هذا الاجتماع الصغير، بنفسي. ثم سأل «جيلبير» أي

وقت يناسبه فأجابه:

– لا فرق عندي. أنا حرّ الآن ولن أبدأ العمل إلا بعد أسبوعين. أشكرك أنا أيضًا.

– لا شيء يستحق الشكر. في «قبرص» الناس مضيافون. وبعد قليل، ستدركون أن هذا شيء طبيعي جدًّا.

– نعم، سمعنا ذلك، لكننا لم نكن ننتظر دعوة بهذه السرعة. اكتفى «كورني» بالابتسام ثم نهض مستأذنًا وقال:

– انتظرا قليلا فستجدان الهدايا على عتبة الباب.

– الهدايا؟

– البرتقال، الحامض، البندورة (الطماطم)، كل ما ينبت في الحدائق. وفي عيد الفصح، سيهديكما أحدهم قالب العيد. وستصبحان من أهل البيت وستتلقيان دعوات لحضور الأعراس. فالقبارصة يحبون كثيرًا رؤية الأجانب يحضرون احتفالات الزواج حتى ولو كان لديهم ألف ضيف. فتحت «سارة» عينيها اندهاشًا وقالت:

– ألف ضيف!

– في القرى، الجميع تقريبًا مقرّبون إلى بعضهم. فهناك الأعمام والعمات والخالات وأبناؤهم، كلهم يأتون خصيصًا من القرى العديدة.

– وأين يجلس كل هؤلاء المدعوين؟

– تعرفون دون شك أن العروس تجلب معها مهرًا. وهو كناية عن منزل وقطعة أرض حوله. وتتم وليمة العرس هناك، تحت أشجار الزيتون والحمضيات. كل شيء يكون رائعًا: الشراشف البيضاء والفضية التي

يجلبها الأقارب كهدايا للعروس والطعام! لن تروا في أي مكان آخر مأدب كهذه. توجه «كورني» نحو السلالم ليخرج وقال:

– نعم، ستفرحان بحضور زفاف قبرصي! أشار إليهما مودّعًا وابتعد. وأمام الباب الحديدي التفت وهتف:

– سأرسل إليكما بطاقات الدعوة خلال أسبوع تقريبًا... تمّ الاحتفال وراء الحانة الواقعة قرب نبع «كيغالوفيزو» الذي تنبع مياهه من شقّ في الصخر الواقع فوق مدينة «لابيتوس». ومن الحدائق يبدو منظر رائع للجبل الممتد حتى البحر، حيث تنعكس أشعة شمس المغيب. أنغام موسيقى البوزوكي وصلت إلى آذان «جيلبير» و«سارة» عندما خرجا من السيارة قاصدين الحانة القريبة. كان الاستقبال تحت قبة من العرائش الخضراء. قدمهما «كورني» إلى أصدقائه. والجميع تمنوا لهم إقامة سعيدة في جزيرة «قبرص». قال «كورني»:

– آه، أين أصدقائي القبارصة؟ ثم نظر «كورني» حوله وقال:

– آه! «أندرياس»! أريد أن أقدّم لك «سارة»... هل شاهدت «كارلوس»؟

– إنه هنا يتحدث مع «آل دييغ». نظر «أندرياس» إلى نحافة جسم «سارة» وقال:

– أخبرنا «كورني» بأنك تؤلفين كتابًا. قاطعته «سارة» ضاحكة:

– لا أفعل سوى مساعدة مديري. تبعت نظرات «كورني» ولمحت ظهر رجل طويل القامة، شعره أسود وكتفاه عريضتان. ناداه «كورني»، فالتفت الرجل نحوه، ثم اعتذر من «آل دييغ» وتقدم نحوهما. شعرت

«سارة» بشحوب يُغطي وجهها وبدأ قلبها يخفق بسرعة وخارت قدماها وصرخت:

– «كارلوس»! توقف «كارلوس» وراح ينظر إليها فترة دون أن يفهم، ثم اقترب منها ببطء. لم يسمع «كورني» صياح «سارة» لانشغاله بأحد المدعوين. فأصيبت بدوار وهي تمدّ يدها للسلام. فشدّ «كارلوس» على يدها بقوة كادت أن تفقدها وعيها من شدة الألم. جاء أحد ليعلم «كورني» بأن صاحب الحانة يريد أن يكلمه. فاعتذر وتركهما. وبقي «كارلوس» و«سارة» وحدهما على مدخل الحديقة. لم يقل «كارلوس» شيئًا. همست «سارة» أخيرًا وقالت:

– أنا غير قادرة على التصديق. يا لهذه المفاجأة الحلوة! غالبًا ما تساءلت أين يعيش، مقتنعة أنه ما زال يعيش في «اليونان». كان يجب عليها أن تدرك مكان وجوده؛ لأن «قبرص» هي وطنه الأم. رددت قائلة:

– أنا غير قادرة على التصديق. فجأة شعرت بانزعاج، إذ اكتفى «كارلوس» بالتحديق إليها بعدائية، وغياب النضج ظاهر على ملامح وجهه القاسي. ظلّ صامتًا، وتساءلت عما إذا كان هذا اللقاء قد أدى به إلى بعض التوتر كما حدث لها. حاولت البحث عن زوجته، وفجأة عادت إلى ذاكرتها الفتاة الصغيرة ذات العينين الخضراوين...

– هل «أليسون» معك؟

– ماتت «أليسون» بعد قليل من ولادة ابنتنا. نفرت شرايين صدغيها، مؤكدة انفعالها القويّ، لكنه ظل يحدق إليها ببرود.

– أنا متأسفة يا«كارلوس»... جد متأسفة. اجتاحها ألم عميق لهذا النبإ وتحسّرت عليه لخسارة زوجته باكرًا، تلك المرأة الوحيدة التي أحبته، أو بالأحرى الوحيدة التي شعر بأنها تحبه. ظلّ جامدًا ولم تكن «سارة» لتعرف ما إذا كان هذا اللقاء يفرحه أم لا. انزعجت وأشاحت بنظرها وسمعته يقول:

– هل تحبين الجلوس؟ هناك زاوية لطيفة تحت الأشجار... ابتسامة خفيفة ملأت وجهه. وشعرت «سارة» بسعادة كبرى لرؤيته بعد هذه السنوات الطويلة. فقالت:

– هل تريد أن تجلس... معي؟ هزّ رأسه وبدا تعبير وجهه قاسيًا إلى درجة أن الفتاة ارتعبت. فقال:

– ليس لدينا ما نقوله يا«سارة». وعن قصد أدار وجهه لينظر في مكان آخر. كان عدد من المدعوين جالسين تحت الأشجار وبعضهم قرب النار حيث تشوى اللحوم. ثم وصل عدد كبير من الرجال ودخلوا المكان في خطوات لامبالية. قال «كارلوس» لـ«سارة» دون أن ينظر إليها:

– اعذريني. يجب أن أحدث أصدقائي هناك. قالت بصوت متوسّل:

– لا تذهب. نظر باحتقار إلى أصابع الفتاة الموضوعة على معصمه وقال:

– ذاكرتك ضعيفة يا«سارة». قلت لك إن «أليسون» ماتت... منذ خمس سنوات. وباشمئزاز دفع يدها بعيدًا وأراد الابتعاد لو لم تصرّ عليه قائلة:

– لا أفهم. لماذا تقول لي إن ذاكرتي ضعيفة. التفت إليها وعلى لسانه

جواب حاضر:

– منذ خمس سنوات، أرسلت إليك برقية لأشرح لك أن «أليسون» تحتاج إلى المال لإجراء عملية جراحية طارئة بسبب متاعب تبعت الولادة. فقد نصحني الأطباء بأن أعالجها عند جرّاح مشهور في «لندن»، ولم يكن لديّ المال الكافي للسفر. وطلبت منك أن تقرضيني بعض المال. توقف واحمرّ وجهه وأضاف:

– لم أفكّر أبدًا في أني سأهان يومًا ما، لكن لا مجال للكبرياء في هذه الظروف القاهرة. نظر إلى «سارة» التي كانت تضغط يدها المرتجفة على خدها بقلق، فتابع بصوت بطيء:

– لقد تجاهلت طلبي، ولما توصلت لاستدانة المال الكافي، كان قد فات الأوان. انغمس داخل ذكرياته الخاصة بينما ظلت «سارة» جامدة، مذعورة، لا تصدق ما جاء في كلام «كارلوس» الذي اضطر إلى أن يستعطي المال الذي هو من حقه، ولكن ماتت زوجته لأنه لم يحصل عليه... تكلمت «سارة» أخيرًا بصوت خائب:

– لم أتسلم برقيتك... أقسم لك بذلك. لا شك في أنها وصلت عندما كنت غائبة عن «إنجلترا»، فلا أمكث في البيت إلاّ نادرًا جدًّا وذلك بسبب عملي الذي يتطلب أسفارًا متعددة. نظرت إليه محاولة قراءة أفكاره من تعابير وجهه وأضافت:

– يجب أن تصدقني يا«كارلوس»... نعم يجب أن تصدقني. هل تعتقد أني قادرة على تجاهل برقيتك؟ أنت تعرفني جيدًا... راح «كارلوس» ينظر إليها بإمعان كأنه يبحث عن دليل لصدقها وقال:

– ألم تتسلمي البرقية؟ هل هذا صحيح يا«سارة»؟

– نعم صحيح جدًّا. ظلّ يتفحصها، لكنها أضافت تقول:

– قل لي إنك تصدقني يا«كارلوس». قل لي، أرجوك. أخيرًا هزّ رأسه وارتاحت ملامح وجهه وأجاب بصوت هادئ:

– نعم، إني أصدقك. ابتسمت وشعرت بسلام في قلبها ورددت بلهجة ناعمة وملحة في آن واحد، قائلة:

– هل بإمكاننا الجلوس؟

– طبعًا. تناول «كارلوس» الكأسين وجلس قرب «سارة» كالغريب. فسألته «سارة»:

– قل لي ماذا فعلت؟ ربما تفضل أن أتكلم أنا أولاً؟ أنا هنا بسبب عملي.

– لا تحتاجين إلى أن تعملي، أليس كذلك؟ إنه تلميح للمال... الذي يخصه.

– يجب أن أعمل لأعيل نفسي.

– هل يجب حقًّا أن تعملي؟ صمتت لحظة باحثة عن الكلمات ثم قالت:

– لم أمدّ يدي إلى ثروتك. ولم يخطر ببالي يومًا أن أقبل هذا الإرث. أجاب بقسوة:

– المال لك.

– كلا، يا «كارلوس»، إنه لك أنت. نظر في عينيها وقال:

– ما أملكه هو ما ريحته من عرق جبيني. رددت على مسمعه أن ثروة

والديه هي له وحده، فسألها:

– ألم تصرفي منها شيئًا؟ وعفويًا اقتربت منه وقالت:

– لا تلمني على ما حصل... ليس الذنب ذنبي إذا تبناني والداك. ولم أكن موافقة على الطريقة التي عاملوني بها. توقفت لحظة ثم تابعت بلهجة أسف صادق:

– حزنت كثيرًا عندما أدركت الوضع. رمقته بنظرة متوسلة وقالت:

– ألا يمكننا أن ننسى كل هذا ونكون صديقين؟ أحست تمامًا أن «كارلوس» لا يشعر بالمشاعر نفسها، لكنها غير قادرة على أن تدعه يذهب مرّة ثانية من حياتها فأضافت بلهجة اقتناع:

– إنه مهم جدًّا أن يكون للإنسان شخص عزيز على قلبه. أنت، لديك ابنتك الصغيرة، أما أنا، فليس لدي أحد. هل دفاعها أثّر فيه؟ هل أيقظ فيه رغبة الحنان الأخوي؟ وضع كأسه على الطاولة ببطء ثم التفت لينظر إليها. كان مبتسمًا بعد أن أضاء وجهه وقال:

– لا أرى مانعًا في أن نكون صديقين. لمعت عينا «سارة» وملأها شعور بالشكر وعرفان الجميل. فتأثرت وظلّت صامتة لحظة، ثم همست ببساطة:

– شكرًا يا«كارلوس». ثم لم يعد هناك توتر أو انزعاج بينهما. ظلاّ جالسين يتنفسان أريج الأزهار التي تحيط بهما. ومن الطرف الآخر للحديقة كانا يسمعان أصواتًا وضحكات وأحاديث وأنغامًا للبوزوكي الحزينة. وكان أربعة شباب قبارصة يرقصون بمهارة وخفة. قطع «كارلوس» حبل أفكار «سارة» قائلا:

www.rewity.com

– قلت لي إنك تعملين؟ فقد خطرت في بالها فكرة رائعة بما يختص بالثروة التي أودعتها المصرف. متى حانت الفرصة المناسبة ستطلب من «كارلوس» أن يسمح لها بأن تحوّل هذا المال إلى ابنته. وإذا وافق تكون قد تخلصت من حمل ثقيل. تابع «كارلوس» يقول:

– من الصعب على الأجانب أن يحصلوا على إجازات عمل. ماذا تفعلين هنا؟

– أعمل عند الكاتب «جيلبير غولغروف».

– إنه يؤلف كتب الأسفار، أليس كذلك؟ لقد قرأت بعضًا منها. عملك ممتع، أليس كذلك؟

– نعم، لأننا نسافر كل سنة. سنبقى في «قبرص» سنة كاملة وحين يزفّ موعد رحيلي من هنا، سنظل نراسل بعضنا، أليس كذلك؟

– طبعًا. قالت بعد تردد كبير:

– ربما بإمكاني أن أقضي عطلتي معك؟ أجابها في الحال، كأنه يشعر بقلقها:

– يكون الأمر رائعًا. هل تريدين المزيد من الشراب؟ قبلت ضاحكة. منذ زمن لم تشعر بسعادة كهذه. عاد «كارلوس» حاملا صينية المازة المؤلفة من عدد كبير من الأطباق الشهيّة التي تؤكل كمقبلات، أمسكت «سارة» كأسها وقالت:

– لنشرب نخب صداقتنا الجديدة؟ رفع «كارلوس» كأسه وشربا معًا. وبعد فترة سألته «سارة» عن اسم ابنته فأجابها:

– «أريان». لكننا نناديها «ريّان».

– «أريان». اسم جميل لمحتها ذات صباح عندما كنت أتنزه قبل الفطور. كانت في الحديقة وبعد ذلك رأيتها في السيارة معك.

– أتذكر أني التقيت بامرأة أجنبية.

– إننا نسكن في «لابيتوس»، في فيلا يملكها أشخاص أمريكيون أثرياء.

– عائلة «ستيفيل»؟ عرفت أنهم أجّروا منزلهم لصديق لهم. إنه مسكن فاخر، هل يعجبك؟ أجابت «سارة» بحماس:

– إنه رائع فعلا والمنظر الذي يطلّ عليه المنزل جميل للغاية. هزّ «كارلوس» رأسه وقال:

– أثاروا اهتمامًا كبيرًا في القرية عندما بنوا هذه الفيلا. لم يسبق أن رأينا مثلها من قبل في «لابيتوس».

– منزلك رائع أيضًا. من الخارج على الأقل. إنه أقدم من الفيلا التي نسكنها. وافق «كارلوس» معها وأضاف يقول:

– كان منزلي خرابًا عندما اشتريته. أعتقد أنه سيعجبك بطريقة مختلفة عن إعجابك بالفيلا التابعة لآل «ستيفيل».

– أنا متأكدة أني سأحبه. بقيت مدة طويلة واقفة أمام المدخل أراقب الحديقة التي أعجبتني كثيرًا.

– يجب أن تأتي لزيارتنا قريبًا. ستفرح «ريّان» بالتعرف إلى عمتها. قال «جيلبير» لـ«سارة» قبل أن يذهبا إلى النوم:

– يا للمفاجأة! لا يسعني التصديق أنك التقيت «كارلوس» هنا، لكني سعيد من أجلك يا بنتي.

www.rewity.com

– لا يسعني تصديق ذلك أنا أيضًا. ابتسمت ودون وعي كتفت يديها وقالت:

– لقد دعاني لزيارته. هل بإمكاني تلبية دعوته والذهاب في الغد؟

– طبعًا. قلت لك إننا لن نبدأ العمل قبل مدة وجيزة. لم أختر بعد نوع الكتاب الذي سأضعه. إنه كتاب سفر؛ لأن هذا ما يُنتظر مني، لكنني أريد أن أفهم القبارصة لأدْخِل في الكتاب تجربتي الشخصية. فسيتجاوز الكتاب تحديد الأماكن والأديرة. ويجب أن يعكس الحياة في الجزيرة بأكملها. اندهشت «سارة» ونظرت إليه برهة في صمت، ثم قالت بأن الجزيرة بدأت تفتنها. فأجاب:

– أظن أنني سأصبح رجلا عاطفيًا كلما كبرت في السن... وأقلّ اهتمامًا... لم تقل الفتاة شيئًا. بل عبر عينيها تعبير حالم. وتردد «جيلبير» لحظة قبل أن يضيف قائلا:

– أعرف أن الأمر لا يخصني، لكن بما أنك في الماضي قد وثقت بي وتكلمت معي بصراحة، أشعر بجرأة الآن لأطرح عليك هذا السؤال:

– هل اقترحت على «كارلوس» أن تعيدي له الثروة التي ورثتها عن والديه؟ أشارت بحركة سلبية وقالت:

– كنت متأكدة أنه سيرفضها. لكني أنوي أن أحولها لابنته. وآمل أن يسمح لي بذلك. هذا المال يشبه سلسلة ضيقة حول عنقي. ضحك «جيلبير» وقال:

– يا بنتي العزيزة، معظم الناس يشعرون بسعادة كبرى لامتلاك مثل هذه الثروة.

– لقد فكرت دائمًا في أن هذه الثروة تعود إلى «كارلوس» ولذلك لم ألمسها.

– كيف يعيش «كارلوس» الآن؟

– يملك مروجًا واسعة وبساتين ليمون في شمال غرب الجزيرة، قرب «مورفو»... لقد تحدثت مع «كورني» قبل انتهاء الحفلة، فأخبرني بأن «كارلوس» أصابه حظ يفلق الصخر. لكنه في البداية عمل كثيرًا وبقسوة. وعدا هذه البساتين، يملك «كارلوس» أيضًا معملا لصناعة المعلبات. إنه يعلّب عصير الفاكهة.

– لا شك في أنه عمل بكدّ. إذ لم يكن يملك فعلا المال الكافي للذهاب إلى «إنجلترا» منذ خمس سنوات. قالت «سارة» بصوت حزين:

– أليس ما حدث لـ«أليسون» أمرًا شنيعًا؟ كانت في عزّ شبابها! رمقها «جيلبير» بنظرة غريبة وقال:

– هل تغلّب «كارلوس» على هذه المحنة؟ قطبت «سارة» حاجبيها وقالت:

– كان مضطربًا جدًا عندما أخبرني بموتها، لكن... الظاهر أنه تغلّب على هذه المحنة.

– ليس من عجب، فالزمان يمحو حدة المصيبة. بعد خمس سنوات، لا تنسي أن الوقت علاج الألم. وافقت «سارة» على قوله وتساءلت لماذا حبها لـ«كارلوس» بقي حيويًا وقويًا إلى درجة أنها لم تفكر أبدًا في أن تتزوج برجل آخر. كان دائمًا موجودًا في عقلها. وكانت لا تعرف سبب حبها المستمرّ. لقد اكتشفت حقيقة عواطفها تجاهه منذ أن كانت

فتاة صغيرة. والآن بعدما التقته من جديد بدأت تشعر بالسعادة لهذه الصداقة. لقد رأت بارتياح أن الحاجز الذي انتصب بينهما بسبب والديه قد تهدم في لحظات قليلة. وبعد ظهر اليوم التالي خرجت «سارة» من الفيلا الحديثة العهد بخطى سريعة، واتجهت نحو المنزل التركي الطراز حيث كان يعيش «كارلوس» وابنته. استقبلها «كارلوس» على مدخل الحديقة، بسرواله الرمادي وقميصه الأزرق. فابتلعت ريقها بصعوبة وحاولت بجهد الابتسام. كم هو جذاب وواثق بنفسه! وتساءلت لماذا تفقد ثقتها واتزانها الداخلي معه. تكلم «كارلوس» بدهشة وفرح:

– هل هناك شيء على غير ما يرام؟ تبدين متقطعة الأنفاس.

– أسرعت في المجيء. منذ الصباح وأنا أشعر برغبة كبيرة في الوصول إلى هنا. ران صمت غريب. فتوجه «كارلوس» معها نحو المنزل وقال:

– لقد تغيّرت. لم تعودي مندفعة وعفوية كما كنت في الصغر. رفعت رأسها لتنظر إليه وقالت:

– لم أعد أتذكّر. هذا زمن قديم وبعيد جدًّا. هزّ رأسه وقال:

– تسع سنوات! صبانا بعيد. احتجت وقطبت حاجبيها وقالت:

– لسنا بأشخاص مسنين.

– لسنا عجزة ولسنا شبابًا... أنا على الأقل، لكن أنت تصغرينني بخمس سنوات. ما زال يتذكر عمرها! ابتسمت وقالت محاولة تغيير الحديث:

– هل «ريّان» هنا؟

– نعم، لكنها وسخت فستانها ومربيتها «ثولا» تساعدها على تغيير ملابسها. تذكرت «سارة» هيئة الفتاة النظيفة وكلمات الخادمة: «انتبهي ألا توسخي ثيابك. تعرفين كيف يكون قصاص والدك إذا رأى بقعة على ثوبك». أدخل «كارلوس» «سارة» إلى الصالون وظلّت واقفة وسط الغرفة معجبة بطرازها ثم قالت:

– إنها رائعة. منزلك أقدم وأجمل من منزلنا. بدا مسرورًا لهذه الملاحظة وأشار إلى مقعد مريح وقال:

– اجلسي يا «سارة».

– شكرًا. ظلّت تنظر حولها وسألته:

– هل اشتريت هذه التماثيل والعاجيات من «قبرص»؟

– كلا، معظمها جئت بها من «مصر» ومن «لبنان». أحب السفر وغالبًا ما أجلب معي شيئًا من البلد الذي أزوره.

– «جيلبير» وأنا ذهبنا إلى «مصر» منذ سنتين، لكني لم أجد مثل هذه الأشياء هناك.

– يجب أن تعرفي أين تفتشين. فالمحلات القديمة الصغيرة ليست معروفة لدى السياح. اتجه نحو خزانة زجاجية وسألها:

– ماذا تحبين أن تشربي يا«سارة»؟ هل تحبين أن تتذوقي عصير الفاكهة المعلبة من صنع معملنا؟ تناول زجاجة ورأت اسم «أنجلوس» عليها. وبعد أن احتست جرعة من العصير قالت:

– إنها لذيذة الطعم. أنت تصنعها أليس كذلك؟

– نعم... توقف عن الكلام وتلألأت عيناه الخضراوان فجأة فالتفتت

«سارة» إلى الوراء ورأت فتاة في غاية أناقتها ونظافتها واقفة على عتبة الباب. فقال «كارلوس»:

– ادخلي يا«ريّان». لا تخجلي. تعرفين من هنا، أليس كذلك؟

هزّت الفتاة رأسها واقتربت. ثم مدت يدها بلطف وقالت كأنها تتلو أمثولتها:

– صباح الخير يا عمتي «سارة». أنا سعيدة بالتعرّف إليك. وفي الحال توارى مزاج «سارة» المرح. هذا ليس التصرف الطبيعي لطفلة في سنها. «ريّان» فتاة جديّة كبيرة بالنسبة إلى عمرها، فمن المسؤول عن هذا؟ الأب أم المربية؟

– وأنا مسرورة أيضًا بالتعرف إليك يا «ريّان». هل تحبين الجلوس قربي؟ المقعد كان واسعًا لكن الفتاة رمقتها بنظرة مترددة وقالت:

– أخاف أن أدعك فستاني. وتوجهت إلى كرسي آخر وجلست بتأن وانتباه وحذر. ثم كتفت يديها فوق ركبتيها وراحت تتأمل «سارة» مطولا وتقول:

– قال لي والدي إنك تسكنين فيلا السيد «ستيفيل». كنا نزوره أحيانًا.

– آه صحيح؟ إذن ستأتين لزيارتي؟ ألقت «ريّان» نظرة إلى والدها الذي كان جالسًا على الأريكة فهزّ رأسه وقال:

– نعم، سنذهب لزيارة العمة «سارة»!

– وسنتناول الشاي كما كنا نفعل مع السيد والسيدة «ستيفيل»؟

– طبعًا. بدأت «سارة» تشعر بانزعاج منذ وصول الفتاة. كانت تفضلها

«سارة» بحذاء وسخ وشرائط معكوفة. كانت تشبه لعبة أو دمية كالدُّمى في واجهات المحلات، جميلة، كاملة، مثالية... لكنها مجرّدة من أي شخصية. كيف يمكن لابنة «كارلوس» أن تكون خالية من الشخصية إلى هذا الحد؟ لا شك في أن هناك من يخنقها. لكن من؟ رفعت عينيها ونظرت إلى «كارلوس» بإمعان. ولمع الجواب في عقلها كالبرق. «كارلوس» يعامل ابنته هكذا كردّة فعل لآلام طفولته، يريد أن يغمها حبًّا أو يصرّ على تغيير ملابسها كلما لطختها ببقعة واحدة. ما العمل؟ تساءلت «سارة» وهي تنظر إلى «ريّان» ووالدها مفكرة: «لا يحق لي التدخل. إن «ريّان» ابنة «كارلوس» وأنا لست سوى غريبة. لكن أي أسف سيكون إذا لم تتغير هذه الفتاة! سينتهي بها الأمر إلى أن تشبه يومًا ما الإنسان الآلي!»

- 3 -

خلال الأسبوعين المخصصين للعطلة قبل البدء في العمل كانت تمطر على «جيلبير» و«سارة» الدعوات من قبل القبارصة والإنجليز. وخلال الأيام العشرة الأولى، حضر «جيلبير» و«سارة» خمس حفلات مختلفة وثلاث دعوات إلى العشاء وسهرة أقامها «لينوس بيتسوس» بمناسبة عيد ميلاد شقيقته «كاترينا» التي بلغ عمرها السادسة عشرة. كانت قد تمت خطبتها من قبرصي يوناني ما زال يتلقى تعليمه في «لندن». و«لينوس» كان يحضر جميع الاحتفالات التي دعي إليها «جيلبير»

و«سارة»، ولم يخف إعجابه بالفتاة الإنجليزية الشابة.

كان ثريًّا ويبلغ السادسة والعشرين من عمره. ورث ثروة ضخمة عن والدته التي توفيت قبل سنة. يملك بناية كبيرة في «نيقوسيا» ويسكن في شقة فيها مع شقيقته، لكنه يمضي عطلة نهاية الأسبوع في قصره في «أيوس غوريوس»، البلدة الواقعة على شاطئ البحر. وأمام واجهة الفيلا شرفة واسعة لأخذ حمام الشمس، مزينة بالزهور والنباتات المتسلقة. وهنا تم حفل عيد ميلاد شقيقته. فتحت الأبواب الزجاجية لكي يتمكن المدعوون من الدخول والخروج حسب راحتهم.

كان «كارلوس» و«سارة» جالسين في الدار عندما كان «لينوس» متوجهًا نحو الشرفة، فتوقف ليثرثر معهما. وظل نظره محدقًا إلى وجه الفتاة ولم يبتسم إلا لها. ثم تركهما للقاء بقية المدعوين الجالسين في الشرفة.

ابتسم «كارلوس» بدوره وقال بلامبالاة وبصوت مليء بروح النكتة:

– إنك لا شك تلاحظين إعجاب «لينوس» بك. لم ترد عليه لكنها احمرت خجلا. فأكمل «كارلوس» حديثه قائلا:

– إنه نصر لك يا«سارة»، لأن «لينوس» لا يهتم عادة بالنساء. هناك عدد لا يستهان به من العائلات يتمنون أن يصبح «لينوس» صهر بيتهم، لكنه حتى الآن لم يعط أية أهمية لأية امرأة. انطفأت ابتسامته. لاشك في أن لا وعيه أخذه إلى طفولته المستوحدة. فنادرًا ما تبتسم شفتاه النحيلتان والقاسيتان، أما نظراته، فهي متحفظة وبعيدة كأنه ضائع في أحلام كئيبة. وتتساءل «سارة» دائمًا عمَّا إذا كان «كارلوس» يتخيل زوجته الراحلة ويتذكر الأيام السعيدة القصيرة التي قضياها معًا. إنه

الآن لا شك منغمس في هذا النوع من الحلم في اليقظة. وكانت «سارة» تعرف جيدًا أنه سيحزن إذا قطعت حبل تفكيره. أخيرًا قطع الصمت بنفسه وقال في لهجة جدية:

– ألم تفكري أبدًا في الزواج يا«سارة»؟ ران الصمت من جديد. ماذا تكون ردة فعله إذا قالت له السبب الذي من أجله لم تفكر في هذا الموضوع أبدًا؟ أخيرًا أجابت:

– أحب عملي. وهذا كافٍ ليمنحني الاكتفاء المطلوب. التفت لينظر إليها متفحصًا. ومرت عيناه ببطء من جبينها الذي تنسدل عليه خصلات مجعدة من شعرها الأشقر إلى ذقنها المروّس، ثم إلى عنقها الأنيق. وردد رافعًا حاجبيه بخفة:

– هل هذا يكفي؟ لم أكن أعتقد أن الوظيفة تمنح المرأة كل ما تحتاج إليه. بصورة عامة، تشعر المرأة بحاجة غريزية إلى أن تصبح أمًّا.

ابتسمت «سارة» وقالت:

– ربما أنا مختلفة عن الآخرين. تعبير بعيد ارتسم على وجه الرجل، فمد ساقيه ونظر لحظة إلى كأسه قبل أن يحمله إلى شفتيه. ثم قال متثائبًا:

– الظاهر أن «لينوس» لا يعجبك بقدر ما أنت تعجبينه.

– أراه لطيفًا ومحبًّا، لكني لا أشعر أبدًا بالانجذاب له.

– هذا الشاب المسكين يضيع وقته! سيفاجأ القبارصة إذا لاحظوا لامبالاتك بسحره. احتجت بسرعة:

– لم يغازلني وربما لا ينوي ذلك.

– صحيح؟ المستقبل سيوضح الأمر. لكني إذا لم أخطئ، فلن يتأخر «لينوس» في طلب يدك. اندهشت وهزت رأسها. إنها متأكدة أنه مخطئ. وفي هذه الأثناء اقترب منها «جيلبير». جاء ليستعلم ماذا يفعلان في الداخل والليل في الخارج ناعم ومعطر. أجابه «كارلوس»:

– لا أعرف. ثم اقترح على «سارة»:

– ما رأيك لو نخرج إلى الشرفة؟ وافقت ونهضت من مقعدها. كانت ترتدي فستانًا قطنيًّا ناعمًا وعلى معصمها سوارًا فضيا أهداه إياها «جيلبير» في عيد ميلادها الخامس والعشرين. سأل «كارلوس» الذي نهض أيضًا:

– ألا تشعرين بالبرد؟ ابتسمت وقالت:

– كلا. وجدوا زاوية على حدة وجلسوا على المقاعد الزاهية الألوان وموسيقى البوزوكي الناعمة تملأ الجو، والمغنون يغنون أغنية حب حزينة تندمج مع الضحك والكلام. قال «جيلبير» مادًّا ساقيه الطويلتين:

– هذه هي الحياة. سأحزن إذا لم أتقاعد هنا. كانت نظراته شاردة في الصخور وجبال «كيرينيا» المكسوّة بأشجار الزيتون والخروّب وحيث تعشعش القرى الصغيرة. سألت «سارة» ضاحكة:

– هل يتقاعد الكتّاب؟

– لا أعتقد. يواصلون الكتابة حتى لا يعودوا قادرين على أن يقفوا على أقدامهم. وأعتقد أني لن أكون خلافًا لهذه القاعدة. تدخل «كارلوس» بلهجة محبة إذ قال:

– لا شك في أن مهنة الكاتب مهنة مثيرة. كان «كارلوس» و«جيلبير» متفقين تمامًا مع بعضهما وكانت «سارة» سعيدة أن ترى هذه الصداقة تنمو على الرغم من الفرق الشاسع بين عمريهما. ثم أضاف قائلا:

– وجدت أن كتابك عن «أثيوبيا» رائع للغاية.

– كنت متحمسًا وسعيدًا عندما كتبته. همست «سارة» حالمة:

– إنها بلاد جميلة. الشعب لطيف ومضياف. الناس رائعون بملامحهم السامية وابتساماتهم المبتهجة وكذلك الأولاد، أليس كذلك يا «جيلبير»؟ هز رأسه موافقًا. لكن «كارلوس» لاحظ وهو يقول:

– أعجبني بصورة خاصة المنظر، حيث تصف دفن القساوسة. تدخلت الفتاة وقالت:

– وعلامة الحزن، إنه حقًّا رائع، يعتقد المرء أنه صوت الجرس، لكن في الواقع هو التقاء صخرة معينة بصخرة أخرى، حيث ينتج عنه رنة واضحة وموسيقية. لكن «جيلبير» يصفه في كتابه بطريقة أفضل. احمر وجهها قليلا وسألت:

– هل تتذكر السيدة «سترومبورغ» يا «جيلبير»؟ يا لها من امرأة غريبة! قهقهت ضاحكة فقال «جيلبير»:

– وكيف يمكن نسيانها؟ ثم راح يشرح لـ«كارلوس»:

– تزوجت ثلاث مرات من أزواج كلهم أمريكيين. وكانت تملك الكثير من المال ولا تعرف ماذا تفعل بثروتها، لذلك كانت تبذرها بصورة شاذة. ومنزلها في غاية الجمال. شيدته على قمة جبل يطل على البحر. فأرضية الدار مثلا، كانت مصنوعة من الزجاج السميك

جدًا. كما جلبت المرجان لأنه يجذب الأسماك الجميلة الملونة، إنه منظر غريب ورائع. الاختراع الإنساني يلائم هدف الطبيعة. سأل «كارلوس»:

– ألم تجدا صعوبة في التفاهم مع الناس؟

– الجميع تقريبًا يتكلمون اللغة الإنجليزية. وبعد صمت قصير قالت «سارة» حالمة:

– الجميع يدعونك إلى منازلهم. لماذا نحن الغربيين لا نقلد الشرقيين؟

قال «كارلوس» باحتقار:

– المال طاغية في الغرب. قطبت «سارة» حاجبيها وتساءلت عما إذا كان يفكر في الثروة التي ورثتها عن والده. بلعت ريقها واقترب «كارلوس» منها، لكن الهاوية ما زالت كبيرة بينهما. المال كان دائمًا بالنسبة إليها حملا ثقيلا، وكانت تتمنى أن تعطيه لهيئة خيرية، لكنها كانت تفكر في أن تلتقي بـ«كارلوس» من جديد وترد له ثروته. وفكرت في ابنته المتصنعة على الرغم من جهودها لتجعلها تتصرف بشكل طبيعي. وكانت «سارة» مقتنعة أنه متى اقتربت أكثر من الفتاة فبإمكانها أن تتكلم عن المال مع «كارلوس» دون صعوبة. ستقترح عليه أن تنقل الإرث إلى «ريّان». قاطع «جيلبير» أفكارها الحالمة وهو يتكلم من جديد عن «أثيوبيا» مع «كارلوس» الذي قال:

– يبدو لي أن «أثيوبيا» بلد رائع ومدهش. أحب أن أزوره يومًا ما.

تدخلت «سارة» قائلة:

– آه! نعم، يجب أن تزور هذه البلاد! ستفرح كثيرًا هناك.

– ربما أذهب يومًا ما. ثم ابتعد بذهنه إلى مكان ما. وتساءلت «سارة»:

«فيم يا ترى، يفكر «كارلوس» الآن؟» عاد «جيلبير» ليضيف قائلا:

– أعتقد أن الوقت قد حان للابتداء في العمل.

– ستبدآن بالقيام بجولة حول الجزيرة، أليس كذلك؟

– نعم. ربما نذهب أولا إلى «بافوس».

– إنها بعيدة جدًا. ستمضون هناك بضعة أسابيع أليس كذلك؟

– أسبوعين تقريبًا. إنها منطقة واسعة ولن نتوقف في كل الأمكنة.

سألت «سارة» «كارلوس»:

– هل تعرف «بافوس» جيدًا؟

– كلا، لا أبقى هناك طويلا. المنطقة لا تشمل فقط مدينتي «بافوس» و«كتيما». إنما معروفة خصيصًا بأسطورة «أفروديت».

– رمز النسيم العليل على أمواج البحر. قال «كارلوس» بفضول:

– تبدين عاطفية يا«سارة». لم يتهيأ لي ذلك في لقائنا الأخير. أجابت بهدوء:

– لست عاطفية. تدخل «جيلبير» وقال:

– «سارة» تعيش من أجل عملها. وقريبي يأمل في الزواج بها... هز رأسه ونظر إلى سكرتيرته مبتسمًا:

– أتساءل أحيانًا إذا لم يكن «كولن» يضيع وقته. رفعت «سارة» كتفيها وأجابت:

– إنه يعرف ما هو تفكيري في الزواج. لا أعتقد أنه يضيع حقًا وقته معي. ويومًا ما سيلتقي بالفتاة المناسبة وسنُدعى كلنا إلى عرسه. جاء

عدد من المدعوين لينضموا إليهم وراح الحديث يتشعب إلى مواضيع شتى. جلس «لينوس» قرب «سارة» ونظر إليها مرارًا بابتسام. وردت عليه الابتسامة بتهذيب آملة أن تكون برودتها كافية لتعبر له عما تشعر به تجاهه. لكنه لم يفهم. أفهمته أنها ستغادر «لابيتوس» عما قريب وستتغيب مدة أقلها أسبوعان. فتجهم وجهه ولم يعلق على كلامها. لكنها أضافت تقول:

– لن نبقى هنا كثيرًا. علينا أن نكتشف الجزيرة. أدركت أن «كارلوس» كان يصغي إلى كل ما كانت تقوله لـ«لينوس». لكنه لم يكن يبدو عليه الاهتمام بالموضوع. حزن قلبها، فـ«كارلوس» يهزأ من اهتمام الرجال بها وأطلقت زفرة عميقة. «كارلوس» أخوها بالتبني!... لكنه ما زال يعتبرها مثل أخته وعليها في المستقبل أن تفعل مثله.

- 4 -

اختار «جيلبير» الطريق التي تمتد على طول الساحل، فالبحر يطل على اليمين وسفوح جبال «كيرينيا» المليئة بأشجار الزيتون والخروب، على اليسار. ترى هنا وهناك فلاحة بثوبها الأسود تحرس قطيع غنم أو ماعز. الربيع على آخر الأبواب لكن أزهار البنفسج مازالت تتفتح على أطراف الطريق وكذلك أزهار الرمان الجميلة التي تضيف سحرًا ناعمًا على السياجات. قال «جيلبير» مقاطعًا أحلام «سارة»:

– أنت صامتة على غير عادتك. التفتت نحوه وابتسمت له وأجابت:

– أفكر في «كارلوس» و«ريّان». بعد تردد قصير سألها الكاتب:

– هل تشعرين برغبة في التحدث إليّ يا «سارة»؟ حدقت من جديد إلى الطريق أمامها. فانعطفت السيارة إلى اليسار نحو خليج «مورفو» وأصبح البحر وراءهما.

– أنت مثل أبي. ليس هذا الرد سوى جواب جزئي لسؤاله فأضاف يقول:

– افتحي لي قلبك يا بنتي. ربما هذا يساعدك.

– أنا قلقة خاصة فيما يخص «ريّان». لقد شاهدتها، ولا شك في أنك قد لاحظت أنها تشكو من نقص في الأمور الطبيعية الفطرية. هزّ «جيلبير» رأسه وقال:

– إن الاسم واضح للغاية ومن السهل ملاحظته. هذه الابنة تشبه آلة صغيرة. وأتساءل أحيانًا عما إذا كانت تشعر بأية عاطفة. قالت بعد صمت قصير:

– هل تساءلت ما سبب ذلك؟ ذكرت «سارة» حادثة حصلت منذ أسبوعين عندما جاء «كارلوس» و«ريّان» ليتناولا طعام الغداء في الفيلا. وراحت «سارة» تلهو بتشعيث شعر «ريّان»، فكانت ردة فعل «كارلوس» العفوية أن قطب حاجبيه. وبعدها عندما راحوا يلهون في بركة السباحة كانت «سارة» أول من غطس رأسه في الماء بينما كانت «ريّان» مجبرة على أن ترتدي قبعة السباحة بأمر والدها. أجاب «جيلبير» بعدما أوقف السيارة على جانب الطريق كي يفتح الطريق أمام فلاحة كانت تمر مع حمارها المحمل:

– بعد كل الذي أخبرتني به عن طفولة «كارلوس»، أعتقد أن تربيته

لابنته ليست سوى رعاية فوق اللزوم.

– أنا أوافقك الرأي كليًا.

– يخاف «كارلوس» أن تكون «ريّان» متأكدة في كل لحظة من حياتها أنها فتاة مرغوبة. وهنا مشكلة نفسية دقيقة. الحل الوحيد هو شفاء «كارلوس»، النفسي طبعًا. قالت «سارة» مندهشة:

– لا أفهم.

– كان من المفروض أن يكون زواجه قد ساعده على الخروج من الانكماش على نفسه، لكن الواضح أن ذلك لم يحدث. توقف «جيلبير» كأنه ينتظر من «سارة» أن تتدخل في الموضوع، لكن الفتاة دعته يتابع كلامه. فأضاف قائلا:

– إذا كان الزواج لم يشفه من أمراضه النفسية، هذا يعني أن ذلك الاتحاد لم ينفعه. ظلت «سارة» تفكر فترة قصيرة ثم قطبت حاجبيها وقالت:

– مازلت لا أفهم.

– الأمر سهل للغاية، فلا أحد أراده فعلا. صرخت «سارة» بحزن:

– آه! لا تقل هذا الكلام! زوجته... لا شك في أنها كانت واقعة في حبه.

– لا شك في ذلك. لكنني متأكد أنه إذا حصلنا على كل عناصر المشكلة سيتضح لنا أن الحب الذي كان موجودًا في البداية بينهما لم يدم طويلا.

– دام زواجهما أربع سنوات وثمرة حبهما «ريّان». كان الحزن يملأ

صوت الفتاة. لا يمكنها أن تتحمل التفكير في أن «كارلوس» كان تعسًا مع زوجته، إضافة إلى ما عاناه طيلة حياته من طفولته إلى سن المراهقة، إلى النضج الذي أدى به لتكوين عائلة.

– بالعكس، هذا يدل على أنهما لم يكونا متحدين بكل ما في الكلمة من معنى.

– تقصد أن... توقفت عن الكلام بعد أن احمرت وجنتاها، ثم أضافت بصوت مخنوق:

– أنا متأكدة أنك مخطئ. غير أنها راحت تتساءل عما إذا كان «جيلبير» على حق في استيعابه للرجل بوضوح. إذا لم يكن «كارلوس» بالفعل سعيدًا مع «أليسون»... ابتلعت ريقها بعصبية وقالت:

– يحزنني كليًا تصور كون «كارلوس» لم يعرف معنى السعادة بعد. رمقها «جيلبير» بنظرة متسائلة قبل أن يركز من جديد انتباهه في القيادة. ودخلت السيارة في منطقة مليئة بالمروج الخضراء. لكن «سارة» كانت تنظر إلى هذا المنظر الخلاب تائهة في أحلامها، وتفكيرها منصب كليًا على «كارلوس». فقال «جيلبير» بلهجة غير مقتنعة:

– ربما أنا على خطإ. وفهمت أنه يحاول تهدئة مخاوفها. لكن فات الأوان. فكرت فيما قاله «جيلبير» وشعرت بألم لأنها فشلت عندما حاولت الاقتراب منه... لو نجحت، لما تزوج «كارلوس» بـ«أليسون». أدارت نظرها نحو النافذة، تخاف أن يقرأ «جيلبير» أفكارها من خلال تعبير وجهها. أخيرًا قالت:

– لا شك في أن «كارلوس» وزوجته كانا يحبان بعضهما البعض جدًا

عندما قررا أن ينجبا ولدًا. لا أعتقد أن زواجهما كان غير موفق.

– لقد قلت لك إنهما لا شك كانا سعيدين في البداية. عندما وهبت «أليسون» حبها، قبله «كارلوس» بإلحاح وسرعة. كان شابًا وينقصه النضج. أعتقد أنهما لم يحببْ بعضهما بعضًا بعمق. لو أحاطته زوجته بالحب الحقيقي والعاطفة الصادقة، لتوصلت إلى مساعدته في الخروج من هذا الانكماش الذاتي القوي لكنه لم يشفَ والدليل هو كيفية تصرفه مع «ريّان». رفع كتفيه وابتسم ثم أضاف:

– عدنا من جديد إلى نقطة الانطلاق.

– و «ريّان»؟ ولدت خلال أربع سنوات زواج.

– ربما أحدهما وحده رغب في الإنجاب.

– تعني أنها جاءت دون حب؟

– ليس هذا غريبًا، خاصة في الشرق. لا تنسي أن «كارلوس» رجل شرقي، حتى لو كان والداه قد حصلا على الجنسية البريطانية، وهو قد نشأ وترعرع في «إنجلترا». تخيلت وجه «كارلوس» القاسي كأنه مصقول بالطين، وكذلك ملامحه الكلاسيكية وبشرته الجافة وجبينه العريض. نعم، إنه قبرصي يوناني ويملك كل مميزات أسلافه... وانغمس كل منهما في أفكاره. ما زالت الشمس منخفضة في السماء لأنهما غادرا الفيلا في ساعة مبكرة. وكانا ينويان التوقف في أماكن عديدة قبل الوصول إلى «بافوس»، وبالأخص زيارة قصر «فوني». لكنهما في الوقت الحاضر مازالا في منطقة المروج والبساتين التي يخصبها نهر «غرين سيراخيس». بينما الجزيرة ككل بلاد جافة خلال جزء كبير من السنة. ومعظم

القبارصة الأغنياء، ومن بينهم «كارلوس»، يملكون هذه الأراضي، كما يملك أيضًا بساتين أخرى في منطقة «فاماغوستا». وفكرت «سارة» في أن «كارلوس» عمل بقسوة ليتمكن من تملك هذه الأراضي، هو الذي كان في غنى عن كل هذا التعب والإرهاق، ما دام حاصلا على ثروة نائمة في الوقت الحاضر في المصرف! وحبها لـ«كارلوس» هذا الرجل الذي ما زال حتى الآن، وهو في سن الثلاثين، متأثرًا بطفولته التعسة، تأثرًا كبيرًا حتى المرارة. وجدت «سارة» أنه ليس بإمكانها أن تفعل شيئًا لابنته وبأسف شديد فهمت أنه من المستحيل عليها أن تصحح الأخطاء التي يرتكبها «كارلوس» باللاوعي. أطلقت زفرة، فرمقها «جيلبير» بنظرة سريعة خفية وقال:

– ماذا هناك يا بنتي العزيزة؟ ابتسم ليخفف من حزنها وقال:

– دعك من انشغال البال، فليس بوسعك أن تفعلي شيئًا.

– أدركت ذلك الآن، إن مشكلة «ريان» لا تجد الحل إلا بشفاء «كارلوس» لكن كيف باستطاعته أن يتحرر من نفسه؟

– يجب عليه أن يتزوج امرأة تقدم له كل حب وحنان، لتعوضه عما خسره منذ طفولته حتى الآن. وخاصة... أن تعرف، كيف تقنعه منذ البداية أنها تريده وتحتاج إليه بشدة. توقف «جيلبير» لحظة وابتسم بانفعال هذه المرة. وشعرت «سارة» غريزيًا بأنه يفكر في زوجته التي توفيت قبل أن تبدأ «سارة» العمل لديه بسنتين. وكانت تعرف أنهما كانا سعيدين للغاية.

– الرجل يحب أن يعرف أن الشخص الآخر يحتاج إليه بشدة. لا

تنسي ذلك يا«سارة»، عندما تتزوجين، وسيأتي هذا اليوم عما قريب، مهما كانت وجهة نظرك في هذا الموضوع. من الضروري أن يشعر الرجل بأن زوجته لا يمكنها أن تتخلى عنه. وآمل أن يلتقي «كارلوس» يومًا ما بامرأة كهذه، لأني أحببته كثيرًا. سكت «جيلبير» ونظر حوله كأنه نسي الموضوع الذي شغلهما خلال هذه الرحلة، و«سارة» التي تعرف الكاتب جيدًا أخرجت دفترًا صغيرًا من حقيبة يدها، فراح يملي عليها حتى وصلا إلى «فوني». أوقف «جيلبير» السيارة أمام منزل الحارس الذي اقترح عليهما أن يكون دليلهما، وقام الثلاثة معًا بدورة حول المدينة. ثم طلب «جيلبير» من الحارس أن يتركهما بعدما شرح له أنه يؤلف كتابًا وأنه يرغب الآن في أن يبقى وحده مع سكرتيرته...

هتفت «سارة» الواقفة على قمة هضبة تكتشف البحر الأزرق الغامق:

– يا له من مشهد رائع! البحر يمتد حتى جبال آسيا الوسطى. وقممها تبدو براقة تحت الشمس. وإلى جنوب الهضبة ترتفع جبال «ترودس» وقممها البركانية. فسفوح الجبال ومنحدراتها كانت مكسوة بأشجار الصنوبر. ومن هنا وهناك سيل ينبثق داخل المضيق. قالت الفتاة باندهاشة فرح:

– هذا جمال يقطع الأنفاس! لم يقل «جيلبير» شيئًا بل راح يلتقط صورًا. جلست «سارة» على قطعة بناء عائد إلى هيكل «أثينا» القديم وراحت تدون انطباعاتها الشخصية التي كان «جيلبير» يستعملها داخل كتابه. كان يقول إن ما تكتبه يدخل تنويعًا جميلا إلى الكتاب. في البداية كانت خجولة ومتواضعة ألاّ تُريها لـ«جيلبير»، لكن جاء

يوم وأصرّ عليها الكاتب أن يراها. ومنذ ذلك الوقت وهو يعتمد على مساعدتها بشكل كامل. وضع آلة التصوير في علبتها وابتسم ثم قال وهو يجلس قربها.

– أنت لؤلؤة. قلت لك منذ قليل إنك ستتزوجين في أحد الأيام... طبعًا سأكون فرحًا أنّ أراك سعيدة، لكن أعرف تمامًا أنني لن أجد سكرتيرة مثلك. أنت تفهمينني جيدًا يا «سارة». أنت لا تعملين عندي بل تعملين معي. ابتسمت بفرح وقالت:

– هذا لأني أحب ما أفعله، دون شك. وأنا أيضًا أعتقد أنني أعمل معك. توقفت قليلا ثم أضافت بلهجة اعتذار:

– أخشى ألا أكون قادرة على أن أعتبرك مديري بل صديقي الحميم. سأحزن كثيرًا إذا قررت يومًا ما أن تأمرني، حتى ولو كان ذلك من أجل أن تذكرني بدوري وواجباتي. ابتسم وهز رأسه وقال:

– لا تقلقي من هذه الناحية. أنا حريص عليك وحدك. وتذكري دائمًا أنني هنا عندما تحتاجين إليَّ. لا تحملي حملا ثقيلا طيلة حياتك. نظرت إلى البحر البعيد وجبال «تركيا» وراحت تحلم... حبها لـ«كارلوس» ليس حملا تحمله منذ زمان بعيد. لم يكن يرهقها أو يضنيها. لكن الآن بالعكس، إنها تشعر بكل ثقله. لا تريد أن تفكر في اليوم الذي ستغادر فيه الجزيرة وتبتعد عن «كارلوس» الذي شعرت بقربها منه لأول مرة في حياتها. تعرف أنها ستكون على السعة والترحاب متى شاءت أن تأتي إلى منزل «كارلوس». وكذلك هو بإمكانه أن يأتي إلى الفيلا متى أراد. وعدة مرات جاء مع «ريّان»

ليأخذ الشاي مع «جيلبير» و«سارة». واكتشف الرجلان أن لديهما أشياء كثيرة يتفقان عليها وخاصة حبهما للأسفار.

وأينما دعي «كارلوس»، ينتظر وجود أخته معه. فكانا يلتقيان في الاحتفالات. يرقصان مع بعضهما ويتبادلان الأحاديث الشيقة. ومرة أو مرتين رفض «جيلبير» الدعوة، فكان «كارلوس» يوصل «سارة» إلى الفيلا بسيارته. وبعد وقت قصير اختفى التوتر بينهما. كانا يحبان بعضهما مثل أخ وأخته، وقررا ألا يبتعدا أبدًا. هذه العلاقة الأخوية أعجبت «كارلوس» وبالتالي كانت «سارة» مسرورة بذلك. تفكر في هذه الصداقة الحميمة، وتتذكر كلمات «جيلبير» الذي قال مرة: «لا أحد أراد «كارلوس» حقًا». وتذكرت بمرارة أنها حاولت ياسة أن تقنعه بصدقها وكانت دائمًا تريده أن يعرف أنها كانت تحبه محبة أخت لأخيها.

نهض «جيلبير» وراح يتمشى حالمًا بين الآثار داخل القصر. حملت «سارة» دفترها الصغير الذي وضعته على حجر من الرخام وتوجهت نحو الكاتب. وخلال نصف ساعة كان «جيلبير» يملي عليها وهي تكتب، لكن ذهنها كان بعيدًا فقد كانت تفكر في الحديث الذي جرى حتى الآن عن «كارلوس» وابنته. وأخيرًا اقتنعت بأن «كارلوس» لن يشفى من ميله إلى الانكماش على الذات إلا يوم يلتقي امرأة تحتاج إليه بشدة. هل تنجح في إقناعه بصورة تدرجية وباستمرار، أنها تحبه بشغف وأنها غير قادرة على أن تعيش من غيره؟

رأته بعد أسبوعين لدى عودتهما من «بافوس». مر «كارلوس» على الفيلا بعد ظهر يوم حار، وكان عائدًا لتوه من «نيقوسيا» حيث قام ببعض

الأعمال. وأخبر «سارة» بأن «ريان» بقيت هناك عند عائلة صديقة له. سألت «سارة» خائبة الأمل عندما علمت بذهاب ابنة أخيها:

– هل ستبقى متغيبة مدة طويلة؟ لم تنجح بعد في الاقتراب من الفتاة بشكل كافٍ، لكنها تفرح لرفقتها. من جهة أخرى، كلما ازدادت رؤيتها للفتاة وجدت حظًا كبيرًا لاستمالة محبتها. وبعد ذلك يصبح بإمكانها أن تفتح موضوع الإرث مع «كارلوس» وتقترح عليه أن تحول هذه الثروة الموروثة إلى «ريّان». أجاب «كارلوس» بعد أن جلس على مقعد قربها:

– ستبقى حوالي أسبوع هناك. قدم له «جيلبير» علبة السجائر، لكنه رفض قائلا:

– أقفلت مدرستها في الوقت الحاضر، بسبب تحسين المبنى وتزيينه. لا أعرف لماذا اختاروا هذه الفترة من السنة لهذه الأعمال ما دامت العطلة الصيفية ستبدأ خلال شهرين. كان باستطاعتهم تأجيل أعمال البناء للصيف. رفع عينيه عندما اقترب منه «جيلبير» ليسأله ماذا يحب أن يشرب. وكانت «سارة» تتأمله بينما كان «جيلبير» يسكب له كأسًا منعشة. وراحت تتساءل: مع من بقيت «ريّان»؟ مع امرأة دون شك. كانت على وشك أن تطرح عليه الأسئلة لكنها حبست كلماتها بين شفتيها. فليست قريبة إلى «كارلوس» لدرجة أن تطرح عليه أسئلة شخصية. سأل «كارلوس» الكاتب كيف أمضى إقامته في «بافوس». فأجابه:

– إقامة رائعة، لكننا عملنا كثيرًا. سنبقى هنا ثلاثة أسابيع لكتابة ما

دوناه من معلومات. لقد زرنا قصر «فوني». إنه رائع جدًا.

– القصر ليس قديمًا كما كنا نعتقد. يعود إلى القرن السادس عشر وبني في العهد الذي كانت فيه الجزيرة منقسمة بين الذين يدعمون اليونانيين والذين يدعمون الفرس. لكنك تعرف كل هذه الأشياء يا«جيلبير».

– نعم، قرأت كتب التاريخ، لكني أهتم كثيرًا بسماع رجل قبرصي يكلمني عن بلاده. ابتسم «كارلوس» وقال:

– لم أمارس كوني قبرصيًا إلا في المرحلة الأخيرة من حياتي ولذلك لا يمكنني أن أقول إنني أعرف أشياء كثيرة عن «قبرص».

– لكنك تعرف العادات والتقاليد والفولكلور والأعياد التقليدية في القرى... هزّ «كارلوس» رأسه وجرع جرعة من كأسه. وفجأة بدا وكأنه بعيد جدًا، كأن الحديث لا يهمه. قطبت «سارة» حاجبيها. «كارلوس» ينكمش أحيانًا على نفسه دون سبب واضح. فيم يفكر؟ شعرت بضرورة إعادته إلى الواقع فقالت بسرعة:

– «جيلبير» مستعد دائمًا لأن يطلب مساعدتك. إنه يستعمل دائمًا المعلومات المباشرة عندما يكون ذلك ممكنًا. تلألأت عينا «كارلوس»، وأجاب:

– حسنًا يا«سارة». ابتسمت له ونظرت إليه بعينين ناعمتين، فـ«كارلوس» لا يبتسم عادة، لكنه هذه المرة التفت إليها بابتسامة صادقة. فقال «جيلبير»:

– شكرًا يا«كارلوس». كنت آمل أن أنال عونك. هل تبقى معنا للعشاء؟ بعد لحظة تردد وافق على قبول الدعوة. ونظرت «سارة» إليه وتأكدت

أنه فرح بصدق. ولما نهض «كارلوس» ليودع «سارة» و«جيلبير»، دعاهما إلى العشاء في مساء اليوم التالي، فقبلا دعوته شاكرين، لكن في صباح اليوم التالي أصيب «جيلبير» بألم حاد في رأسه في آخر النهار، فلم يكن قادرًا على الخروج فقال:

– ستذهبين وحدك يا«سارة» وتعتذرين نيابة عني إلى «كارلوس»، أليس كذلك؟

– نعم طبعًا... لكني لا أحب أن أتركك وحدك. ابتسم لها وقال:

– يا بنتي لست مضطرة إلى العمل طيلة الوقت. إذا كنت تعملين في مكتب ما، فلن تعملي ساعات عديدة كهذه.

– عندما يحب الإنسان ما يفعله، فلا يعتبره عملا. توقفت عن الكلام ولمحت بريق حنان في عيني «جيلبير» فقالت:

– بإمكاني أن أتصل بـ«كارلوس» هاتفيًا... قاطعها قائلا:

– يجب أن تذهبي سأدخل إلى فراشي بعد قليل ولا سبب لبقائك هنا. ستفرحان في أن تكونا وحيدين لمرة، وإني متأكدٌ أن لديكما أمورًا كثيرة تحتاج إلى التوضيح فيما بينكما. اقترح عليها أن تأخذ السيارة لكنها فضلت أن تذهب مشيًا على الأقدام فمنزل «كارلوس» لا يبعد إلا مسافة كيلومتر واحد عن الفيلا.

كان «كارلوس» في بزة مريحة وأنيقة من الكتان الأبيض، تؤكد نحافته وقميصه الأبيض يظهر بشرته الجافة. قطب حاجبيه بقلق عندما شرحت له «سارة» سبب تغيب «جيلبير». قائلة:

– يقول إن الحر يزعجه أحيانًا.

– عادة، الحر ليس قويًا في شهر أيار (مايو). هل تعتقدين أن «جيلبير» يحتاج إلى طبيب؟

– لا أعتقد. إنه يعاني أحيانًا من آلام الرأس. لا شك في أن ذلك عائد لتعب النظر، لكن هذه الآلام سرعان ما تختفي بعد راحة ونوم هادئ.

أما «سارة» فكانت ترتدي فستانًا واسعًا ورقيقًا. وراح «كارلوس» ينظر إليها كأنه يلاحظ جمالها لأول مرة. كانت عيناه تحدّقان إلى شعرها القصير المجعد، وكتفيها السمراوين، وارتعش كأنه شعر بندم من أعماقه. أزاحت «سارة» وجهها، مضطربة، يختلجها شعور عنيف. لكن سرعان ما اختفى انزعاجها وابتسمت له بعفوية رائعة. رد عليها بابتسامة لطفت ملامح وجهه. فانتفض قلب «سارة» وأدركت أنها سلكت طريقًا خطرة، لكنها لم تعد قادرة ولا تريد أن ترجع إلى الوراء، وللحظة قصيرة تذكرت أن «كارلوس» يعتبرها أخته، لكنها شيئًا فشيئًا بدأت تتخيل مستقبلا رائعًا يتجاوز آمالها المجنونة.

دعاها إلى الجلوس وسكب لها كأسًا، وشعرت بارتياح وهي ترد على الأسئلة التي كان يطرحها «كارلوس» عن حياتها وعملها. وتجرأت على أن تسأله هي بدورها. فعرفت أنه غادر «اليونان» منذ سنوات قليلة وجاء إلى «قبرص» ووجد عملا في مكتب.

– مديري كان راضيًا عن عملي. ومات فجأة تاركًا لي إرثًا ساعدني على الانطلاق. فاشتريت بستانًا للحمضيات قرب «فاماغوستا». وبعد مرور زمن قصير شهدت المدينة امتدادًا سريعًا بسبب السياحة، وأصبح سعر الأرض مرتفعًا. كذلك عاودني الحظ فعقدت صفقة مع رجل يملك بساتين

في «مورفو». كان مصرًا على العمل في مدينة لبيع الأبنية وتأجيرها. وقمنا بعقد تبادل. أراضيه كانت أوسع من أراضيّ، لكنها أقل قيمة.

– قال لي «جيلبير» إن أحدهم اقترح عليه شراء قطعة أرض على سفح التلة القريبة من الفيلا. وهو يفكر في شرائها وبناء منزل إذ بإمكانه أن يتقاعد هنا ويقضي آخر سنوات حياته.

– إنها فكرة رائعة. أنصحه أن يشتري في الحال. وسيكون له أجمل منظر في الجزيرة. وأكمل «كارلوس» قصصه الكثيرة وعلمت «سارة» أنه اشترى بساتين أخرى في «فاماغوستا» و«مورفو». وبعدها قرر أن يعلّب عصير الفاكهة التي تنبت في بساتينه. والآن يفكر في توسيع مصنعه الذي يقع في ضواحي «نيقوسيا».

– يجب أن تكون فخورًا بنجاحك، أليس كذلك؟ هز رأسه بصورة آلية وتناول كأسه. شعرت بأنه يبتعد عنها. وتساءلت عما إذا كان يفكر في زوجته الراحلة. فسألته:

– منذ متى تسكن هذه الفيلا؟

– منذ سنتين. احتجت إلى سنة كاملة لترميمها.

– إذن، «أليسون»... لم يتسن لها أن... لم تكن تنوي التحدث عن «أليسون». انخفض صوتها حتى انطفأت الكلمات في حنجرتها. راحت تنظر في وجهه عن ردة فعل، لكنه اكتفى بهز رأسه والإجابة بصوت حزين.

– لم تعرف «أليسون» الراحة التي يجلبها المال. عرفت كل الصعوبات دون أن تنال أية مكافأة. كان ينظر بعيدًا إلى الشمس التي تغيب وراء

الأفق. وراحت ألوان السماء تميل من الأحمر، إلى الأصفر العنبري، إلى الذهبي. أطلقت «سارة» تنهيدة صغيرة. فرفع حاجبه متسائلا.

– إني... إني أشعر بحزن كبير. تحاشت نظراته وحدقت إلى محتوى كأسها. انحنى «كارلوس» إلى الوراء على مقعده وبعد صمت طويل رفع عينيه وقال أخيرًا:

– كل هذا يعود إلى الماضي. جاء خادمه معلنًا أن العشاء جاهز ولم يتكلما في هذا الموضوع خلال السهرة كلها.

- 5 -

ودخلا من الشرفة إلى غرفة الطعام ذات السقف المرتفع والمضاء بنور الشموع الناعمة. الشمعدانات الفضية تزيّن وسط الطاولة والزهور العطرة تزيد سحرًا غريبًا على الديكور. ومن زاوية الغرفة تنبثق موسيقى البوزوكي الناعمة من آلة الاسطوانات. الأرض مفروشة بالسجاد العجمي، والبسط الجميلة تملأ الجدران. إنه منزل رجل ذي ذوق رفيع. وغياب اللوحات والأيقونات تؤكد انتماءه إلى الشرق.

بدت لها حرارة الغرفة منعشة عندما دخلا إليها. فالتفت إليها «كارلوس» ليسألها إذا كانت تشعر بالبرد لكنه اصطدم بها بعنف إلى درجة أنه مد يديه غريزيًا ليمسك بها كأنه يخشى أن يراها تقع أمامه.

– أنا متأسف... انطفأ صوتها عندما رفعت عينيها البراقتين نحوه

لتلفت انتباهه... وتكشف له عن سرها.

– «سارة»... همس باسمها في صوت ناعم كأنه نسيم يلاعب ورق الشجر الأخضر في ليلة عطرة. خفض رأسه، ولاحظت خيوطًا ذهبية على صدغيه وأحست بلهاثه على خدها. أغمضت عينيها. كانت تعرف أنه يرغب في عناقها. وقال في لهجة مفاجئة كأنه يرميها بماء بارد:

– «سارة»... أنا متأسف فعلا، كدت أن تقعي بسببي. انتفضت عندما فتحت عينيها ورأت على وجهه ملامح الإحساس بالذنب والندم. ماذا يعني ذلك؟ ابتعد عنها لكنها ما تزال تشعر بيديه الدافئتين وصلابة جسمه الذي اقترب منها لحظة قصيرة. ظلّ ينظر إليها مندهشًا مذعورًا كأنه لم يفهم تصرّفه.

– كنت على وشك أن أسألك إذا كنت تشعرين بالبرد. بإمكاننا أن نشعل النار في المدفأة فورًا. هزّت رأسها بحزن إزاء شعورها بخيبة أمل مرّة:

– كلا يا«كارلوس». لا أشعر بالبرد أبدًا. حاولت الابتسام كأن شيئًا لم يكن لكنها لم تكن قادرة على أن تطرد هذه الحادثة من رأسها. وانتهت بالتفكير والاقتناع الداخلي إلى أن «كارلوس» لم يكن ينوي عناقها، كما أن تعبير وجهه الغريب، أي تعبير الشعور بالذنب، ثم اندهاشه وذعره، لم تكن سوى خيال وهمي. ولما تمكنت من إبعاد هذه الأفكار عن رأسها، شعرت باسترخاء مع «كارلوس».

بعد العشاء، تناولا القهوة في الشرفة. وكان حديثهما خفيفًا بل مثيرًا.

الجوّ كان دافئًا وديًا. وإذ لاحظ «كارلوس» توترها خلال العشاء، تصرّف بشكل طبيعي جدًا. سألها قاطعًا الصمت:

– هل حضرت عرسًا قرويًا؟

– وجدنا دعوتين عندما عدنا إلى الفيلا. ولا نعرف من يكون أصحابهما.

– أهل العروس والعريس يدعون الجميع... القبارصة شعب مضياف ولا يفكرون لحظة واحدة في ترك أحد على حدة وخاصة أنت و«جيلبير».

– أخبرنا «كوري» بالأمر وقال هناك أحيانًا ألف مدعو إلى العرس.

– هذا صحيح. الجميع هنا مقربون وأصدقاء.

– عندما يكون للمرء عائلة كبيرة لا يشعر أبدًا بالوحدة.

– فعلا. عاش «كارلوس» طفولة وحيدة، مرفوضًا من والديه، يغار من أخته إلى درجة أنه رفض حتى أن تكون له صديقة. عرف هدنة لمدة أربع سنوات هي فترة زواجه، وبعد وفاة زوجته عاد إلى وحدته يعيشها مع طفلته الصغيرة. أربع سنوات خلال عمر يتجاوز الثلاثين لا تعني الشيء الكثير.

راحت «سارة» تفكر في وضعها... صحيح أن والديها بالتبني دللاها وأفعماها بالهدايا، لكنهما لم يعيشا إلا لبعضهما حتى الموت. وبعد وفاتهما، عاشت «سارة» وحيدة. كانت تعيش وحدها في شقة صغيرة وتعمل في مكتب صغير. ولم يتغيّر نمط حياتها إلاّ عندما بدأت تعمل مع «جيلبير». ومنذ اليوم الأول بدأ الكاتب يهتم بها. وبسبب هذا

الوضع المميز لم تشعر «سارة» بالوحدة أبدًا. وبعد قضاء ثلاثة أشهر في العمل لديه بدأت ترافقه في أسفاره إلى الخارج. لم تكن تقاسمه فقط عمله، بل حياته العصرية أيضًا. نصحها أن تترك شقتها، فلماذا تدفع إيجارًا وهي دائمًا متغيبة عن «لندن»؟ واقترح عليها السكن عنده عند عودتهما من أسفارهما. هكذا كان يعاملها معاملة الأب لابنته. وفكرت في أن حظها كان أقوى من حظ «كارلوس». فكانت محاطة بإنسان طيّب تستشيره في الأوقات العصيبة. ومن جهة ثانية كان لـ«كارلوس» ابنة من دمه ولحمه. ومع ذلك فهو دائمًا وحيد وبالتالي لديه الوقت الكافي ليفكر في ماضيه وفي قدره الذي كان مختلفًا كليًا عن قدر أصدقائه.

وحيال هذه الأفكار سيطرت عليها الرأفة، وارتسم على وجهها بريق حنان. ووجدت في نظرات «كارلوس» التعبير نفسه الذي لاحظته من قبل، إنه ندم مرتبط بالحاضر وليس بالماضي كما كانت تتوقع. غير أنه غيّر فجأة تعبير وجهه وابتسم لها. ولاحظت إلى أية درجة يجذبها. عليها إذن أن تكون متبصرة، لكنها لم تكن قادرة على أن تمتنع عن الابتسام له. قالت بأسف بعدما ألقت نظرة إلى ساعة يدها:

– أعتقد أن الوقت قد حان كي أعود إلى المنزل. أجابها «كارلوس» وهو يقف في الحال:

– نعم. الوقت متأخر وسأوصلك.

– لا حاجة إلى ذلك. هنا بإمكان المرأة أن تتنزه وحدها بأمان في الليل. هذه حسنات الجزيرة، حيث الجرائم تعد على الأصابع!

– الجرائم تقريبًا غير موجودة. إننا دون شك الشعب الأكثر احترامًا للقانون. ثم نظر إليها قائلا:

– هل أحضرت سترة تضعينها على كتفيك، فالليل بارد نسبيًّا.

– لا. لا أشعر بالبرد.

– الحرارة منخفضة. سأجلب لك سترة من عندي وبإمكانك أن تضعيها على كتفيك. أرادت الاحتجاج لكنه كان قد دخل إلى المنزل وعاد بعد قليل حاملاً بيده السترة وقال آمرًا:

– استديري. أطاعت فوضع السترة على كتفيها، فارتعشت عندما التصقت يداه وذقنه بشعرها. ثم أدارها بهدوء نحوه وراح ينظر إليها متمهلا قبل أن يقول بصوت حنون:

– إني سعيد أننا التقينا أخيرًا يا«سارة». ولا يجب أبدًا أن نبتعد عن بعضنا كليًّا.

– لا يا«كارلوس»، أبدًا. كان يجب أن تفرح لكلماته، لكنها شعرت بالانهيار من جديد لأن صوته وعينيه لا يعبران إلاّ عن محبة أخوية عميقة. تأبط ذراعها وخرجا من المنزل. الممرّ كان محاطًا بأشجار الخرّوب والأغصان تتلاقى ببعضها فوق رأسيهما. اجتازا الجسر الحجري حتى وصلا إلى الساحة حيث المقاهي، والأنوار تلمع وراء الزجاج وعلى الشرفات والرجال يلعبون الورق. قال «كارلوس» بمزاح:

– لم يصدقوا بعد أن لي أختًا. أتساءل عما إذا كانوا يصدقون أنك أختي. أجابت بسرعة:

– ألم تحدث أحدًا عني من قبل؟ هزّ رأسه قائلا:

– كلا. لم أفكر أبدًا في أننا سنلتقي يومًا ما. توقف ورمقها بنظرة اعتذار وأضاف:

– كنت ألومك لقلة حساسيتك إلى درجة أني كنت أقول وأردد إنه حتى إذا التقينا، سأرفض أن أتعرف إليك. شد على ذراعها بلطف وقال:

– آسف لحكمي الخاطئ عليك. أنا سعيد جدًّا لأننا التقينا من جديد. وبصمت استمرا في التنزه معًا على طول الطريق التي تصل بهما إلى الفيلا. اجتازا بساتين الحمضيات المشهورة بها «لابيتوس» فالجميع هنا الفقير والغني، يزرع أشجار الحمضيات في أرضه. حتى الأجانب الذين تقاعدوا في الجزيرة يملكون أشجار الحمضيات في حدائقهم. الأضواء تظهر من وراء النوافذ الخشبية التابعة للمنازل الصغيرة، والجوّ عابق بعطر الحدائق. من بعيد، على قمة تلة صغيرة، ظهر شبح دابة نهيقها ثقب الصمت. لكنها توقفت أخيرًا وسمعا رنين الأجراس الصغيرة المعلقة في أعناق الماعز المنتشرة على القمم الخضراء. هنا وهناك عائلة تثرثر في شرفة منزلها والجميع ينظرون إليها بابتسام:

– كالي نيختا (ليلة سعيدة) يا«كارلوس».

– كالي نيختا يا«أندرياس».

– مساء الخير يا آنسة «سارة». ستأتين مع السيد «جيلبير» إلى عرس ابنتي، أليس كذلك؟

– طبعًا وشكرًا جزيلا لدعوتك. كالي نيختا. ضحك «أندرياس» ولمعت أسنانه البيضاء على وجهه الأسمر وسألها:

www.rewity.com

– هل تتكلمين اللغة اليونانية؟

– كلا. توقفا أمام الباب الحديدي فنهض «أندرياس» من مقعده واقترب منهما. أضافت «سارة»:

– أعرف كلمات قليلة، لكن كل الناس تعرف أن تقول «ليلة سعيدة» باللغة اليونانية. نظر إلى السماء المليئة بالنجوم وقال:

– ليلة جميلة. هل تحبين «قبرص»؟

– جدًا. جزيرتكم رائعة كليًا.

– في «إنجلترا»، المطر يتساقط باستمرار. ابني دخل الجامعة هناك. ويخبرنا بأنه يخاف من الغرق لكثرة المطر. ابتسمت وقالت:

– الطقس ليس سيئًا كليًا. أحيانًا لدينا أيام جميلة. رفع الرجل كفيه ورأت «سارة» وراءه زوجته وابنتيه فصمتت. من النادر أن تقاطع المرأة رب العائلة عندما يتكلم لكن زوجته قالت:

– في «إنجلترا» الأيام المشمسة نادرة. بينما هنا الطقس جميل دائمًا. ولا تمطر قطرة واحدة من شهر أيار (مايو) إلى شهر تشرين الأول (أكتوبر).

– صحيح، الطقس مختلف في «إنجلترا» عما هو في «قبرص». لكن الحرّ لا يطاق أحيانًا في «قبرص».

– إذن يجب أن تذهبي إلى جبال «ترودوس». قالت «سارة» لـ«كارلوس» بعدما أكملا طريقهما:

– «جيلبير» يخصص شهري تموز (يوليو) وآب (أغسطس) لزيارة جبال «ترودوس». قيل له إن بإمكانه استئجار منزل هناك بسعر زهيد للغاية.

– صحيح. القبارصة يتصرّفون أحيانًا بغرابة فيما يتعلق بالأعمال. مرّة اقترح أحدهم على أحد أصدقائي أن يقيم في فيلا صغيرة مقابل مبلغ من المال. وكان بإمكانه أن يبقى هناك إلى الوقت الذي يريده.

– لكن يكون بإمكانه إذن أن يبقى هناك بصورة نهائية.

– في هذه الحال أعتقد أن المؤجر سيطلب منه أن يدفع إيجارًا جديدًا.

ضحك وتغيّرت ملامح وجهه. تحب «سارة» أن تجعله يضحك في أغلب الأوقات. وراحا يتسلقان ممرًا ضيقًا وصخريًا، لا يمكن للسيارات والآليات أن تجتازه. إنه «مخصّص» للمتنزهين. أشجار الخروب والزيتون والدلب تشكل قبة سميكة خضراء لا يمكن للنور أوالقمر أن يخترقها. وفي شبه الظلام كل شيء صامت لا يتحرك. ارتعشت «سارة». إنه منظر رومانتيكي.

أصابع «كارلوس» تضغط بقوة على ذراعها. وتهيأ لها أنه يفرض على نفسه واجبًا قسريًا كأنه منشطر إلى اتجاهين معاكسين. إنها فكرة غريبة لكنها لم تكن قادرة على طردها من ذهنها. وظلت متيقظة وهي في فراشها مدة طويلة تفكّر في أن «كارلوس» ربما يصارع ضد نفسه. وما هما هذان الاتجاهان المعاكسان اللذان يحطمانه؟ وحتى الفجر، لم تكن «سارة» قد وجدت الإجابات عن هذه الأسئلة. ربما كانت ضحية مخيلتها، لكن هذا الحال لم تكن مقتنعة به. غير أنها بعد أن تناولت فطور الصباح المؤلف من عصير البرتقال الطازج والخبز المحمص مع الزبد والمربى، شعرت بتوتر أقل وأصبح بإمكانها أن تكرّس نهارها للعمل الذي تحبه. سألها «جيلبير» عندما جلسا إلى المائدة لتناول العشاء:

– هل تقبلين إكمال العمل بعد العشاء؟ أريد أن أنهي الفصل. أجابت «سارة» بحماس:

– طبعًا، وأنا أيضًا أحب إنهاء الفصل. ابتسم «جيلبير» وأجاب ببساطة:

– شكرًا يا«سارة». ولما توقفا عن العمل في الساعة الحادية عشرة والنصف، اقترح عليها أن تأخذ نهار الغد يوم عطلة. فاحتجت في الحال. لكنه هددها ضاحكًا أنه إذا لم تطعه فسوف يستعمل سلطته لأول مرة.

– وماذا سأفعل في نهاري؟

– لماذا لا تأخذين بعض الراحة والاسترخاء. اسبحي وتمددي تحت الشمس. هذا لن يضرّك صدقيني. وصل «كارلوس» في الوقت الذي كانت فيه «سارة» تستعد للصعود إلى السيارة والتوجه نحو شاطئ البحر. فشرح له «جيلبير» بابتسامة قائلا:

– استحقت «سارة» أن تأخذ يوم عطلة. راح «كارلوس» يتفحص «سارة» وقد ارتدت مئزرًا مفتوحًا مظهرًا بزة سباحة صفراء. ونسيت «سارة» كليًّا وجود «جيلبير» وتهيأ لها أنها وحيدة مع «كارلوس». كانا ينظران إلى بعضهما دون كلام. أخيرًا قال «كارلوس»:

– أنا أيضًا أرغب في السباحة هل بإمكاني المجيء معك؟ تلألأ وجهها بابتسامة عريضة وأجابت بسرعة:

– طبعًا يا«كارلوس». لست مصرّة على الذهاب وحدي. كان «جيلبير» يحدق إلى «كارلوس»، ثم بحركة من رأسه استدار نحو سكرتيرته ونظر

إليها باهتمام فلاحظ احمرار خديها والبريق السعيد في عينيها. فقطّب حاجبيه لحظة ثم ابتسم لهما وقال:

– يجب أن تتناول الغداء معنا يا«كارلوس»، بعد عودتكما إلا إذا كنت مرتبطًا بعمل ما...

– سأسر للأمر. شكرًا يا«جيلبير». ثم قال موجهًا كلامه إلى «سارة»:

– يجب أن أمرّ على البيت وأجلب بزة السباحة. بعد ساعة، كانا يسبحان في شاطئ «الكابولكو». من «لابيتوس» حضرا بالسيارة ولم يتكلما خلال الطريق. وبعد أن أوقف «كارلوس» السيارة، تناول مناشف الحمام من المقعد الخلفي وقال:

– لم أكن أتوقع الخروج معك عندما ذهبت إلى الفيلا صباح اليوم. جئت لأدعوكما إلى حفلة سأعقدها في فندق «الهيلتون» في «نيقوسيا» نهار الجمعة المقبل. هبطا من السيارة وتوجها نحو الشاطئ المهجور نسبيًّا. وبعد مكوث نصف ساعة تقريبًا في الماء، تمددا على الرمل ليجففا جسميهما الملوّحين بالسمرة. خلفهما تنتصب جبال «كيرينيا»، وقممها المشرفة تبرز بوضوح تحت السماء الزرقاء.

– هل تحبين أن تشربي شيئًا يا«سارة»؟ التفتت «سارة» إليه، فرأته يحدق إليها بنظرة غريبة. فشعرت في الحال بالاحمرار يعلو خديها. وقبل الاستسلام لانفعالاتها رغم وعيها الكامل للمخاطرة التي تتعرض لها، لكنها لم تكن تقوم بأي جهد لتتحاشاها.

– أحب أن أشرب كوب ليمون. نهض «كارلوس» ثم سألها:

– تريدين أن تشربيه في المقهى أم أجلبه لك إلى هنا؟

– لنذهب إلى المقهى. سنكون في الظلّ هناك. جلسا تحت العرائش وسألها «كارلوس» بعدما جلب خادم المقهى المشروبات المنعشة:

– ألا تريدين شيئًا آخر؟ ألست جائعة؟ هزت رأسها وقالت:

– كلا، شكرًا. إذا أكلت الآن أفقد قابليتي وقت الغداء. وراحت تنظر إلى البحر الأزرق وتهمس قائلة:

– لا موجة، لا تجعيدة... لم أرَ من قبل بحرًا هادئًا كهذا.

– البحر جميل اليوم. أمضيت وقتًا طويلا في «اليونان». إنه بلد أحبه كثيرًا. لكن ما إن وصلت إلى هنا حتى شعرت بضرورة الاستقرار في «قبرص». أشعر بأنني عدت إلى وطني منذ اللحظة الأولى في هذه الجزيرة.

– لماذا اخترت «لابيتوس» بالذات؟

– في البداية، عشت في شقة صغيرة في «نيقوسيا». ولما اكتشفت «لابيتوس» شعرت برغبة في أن أشتري فيها منزلا. وكان المنزل الأول صغيرًا جدًّا، أي مؤلفًا من غرفة في الطابق الأرضي وغرفة أخرى في الطابق الأول.

– صحيح؟

– إنه منزل غريب. أعتقد أنك كنت ستحبينه فهو مبني على قمة تلة. الغرفة في الطابق الأرضي كانت تستعمل كدكان لبائع متجوّل، أما الغرفة في الطابق الأول فكانت تخص خبّاز القرية. كان للمنزل مدخلان، واحد تحت وثانٍ فوق. أما أنا فبنيت سلمًا متعرجًا حتى لا نضطر إلى أن نقوم بدورة في المنزل كي نذهب إلى فراشنا، كما كان يفعل

المستأجر الأول الذي كان يعيش هناك مع زوجته وأولاده الثمانية.

– ثمانية أولاد! أين كانوا ينامون كلهم؟ بالفعل كانت «سارة» في هذه اللحظة بالذات تفكر في «أليسون» التي عاشت مع «كارلوس» في هذا المنزل الذي يبدو جذابًا. أجابها «كارلوس»:

– كانوا يستعملون الغرفتين. لكن في الصيف كان من الممكن جدًّا أن يناموا في الخارج. أنا كنت معتادًا أن أنام في الصيف في الشرفة... توقف عن متابعة الكلام مدركًا بعد فوات الأوان ما قاله، لكنه استعاد وعيه بسرعة وتابع يقول:

– كنت أحب أن أرى الشمس وأنظر إلى النجوم في الليل. هل سبق أن نمت في الهواء الطلق يا «سارة»؟ هزت رأسها شاردة، إذ كانت تفكر في أقوال «جيلبير». هل كان «كارلوس» ينام في الهواء الطلق لأنه كان يشعر بأن زوجته لم تكن تريده؟ وربما شعرت «أليسون» هي أيضًا بأنه لا يريدها. أدركت بعد قليل أن «كارلوس» بانتظار جواب، فأسرعت تقول:

– كلا... لكن لا بدّ من أن ذلك رائع. هنا الليالي دافئة وعطرة. ثم أضافت بحزن:

– للأسف هناك مشكلة بالنسبة إليّ، لأني لا أطيق لسع البعوض.

– هل تقلقك وتبعد عنك النوم؟

– حتى الآن، أنا على ما يرام، لكن بعد أسبوعين سيزداد عددها وأنا دائمًا أعاني منها في البلدان الحارة.

– هذا لأنك كنت دائمًا تعودين إلى «إنجلترا». إذا بقيت هنا، ستكون

عندك مناعة ضدها.

– هل تعني أن البعوض لن يلسعني؟

– بالطبع. البعوض لا يفتك بالمواطنين الأصليين!

– قال لي أحدهم إن أهم نجاح حققه الإنجليز في «قبرص» هو أنهم أنقذوا الجزيرة من البعوض، لكنهم لم ينجحوا كليًا.

– لقد تغلبوا على البعوض الذي يحمل مرض الملاريا. هزّ «كارلوس» رأسه وقال:

– نعم. لم يعد هناك وجود لهذا النوع من البعوض كليًا. البقية الباقية تزعج لكنها ليست خطرة، فهي تشبه البعوض الذي يعيش في «إنجلترا».

– لكن عددها أكبر.

– ربما. سكت لحظة ثم تابع يقول:

– إذا رأيت عددًا كبيرًا منها في حديقتك، عليك إعلام المختار. سيرشها بمسحوق سام.

– صحيح؟ هذا أمر مهم. إذن بإمكاننا الفتك بها إذا ما وجدت مكانًا تتكاثر فيه.

– نعم. بالضبط. سألها «كارلوس» إذا كانت تريد شرابًا آخر. رفضت «سارة»، فعادا إلى الشاطئ وجلسا برهة يثرثران قبل أن ينزلا إلى الماء مرّة أخرى. خرجت «سارة» من الماء قبل «كارلوس» وجلست وحدها ممدّدة على الرمل بينما كان «كارلوس» يسبح بعيدًا، وتكاد لا تراه. ولما عاد لاحظت الاسترخاء في وجهه المشع. ولأول مرة أدركت أنه

سعيد، يحب الحياة... فانتفض قلبها فرحًا. قالت عندما قررا العودة إلى الفيلا:

– إنها بطالة رائعة.

– بالفعل. يتهيأ لي أنني في عطلة.

– وأنا أيضًا. وللحظة لم تفكّر في شيء. لكن من جديد أرادت أن تطرح عليه الأسئلة، لكنها تمالكت نفسها كي لا تسأله عن المرأة التي وضع «ريّان» عندها. لو كان يريد أن يخبرها بالأمر لفعل ذلك بنفسه. هذا الأمر شديد الغرابة. فلو أنها صديقة حميمة لأخبرها عنها. لم تكن «سارة» قادرة على التصوّر أن بإمكان «كارلوس» أن يكون عنده صديقة، حميمة يبدو أن كل رفاقه رجال...

– هل جف جسمك؟ أعطاها المنشفة فأخذتها لتزيل الرمل عن ذراعيها وساقيها. ثم ناولها مئزر الحمام فارتدته بعدما ارتعشت لالتصاق يديه بكتفيها. كان قربها وشعرت برغبة في الانضمام إليه كليًا. قال بصوت هادئ وناعم:

– أحبّ لو بإمكاني أن أقود سيارة «جيلبير» لكني لا أجرؤ على سؤاله إذا كان يسمح لي بذلك. أدارها نحوه وهو يتكلم. رفعت عينيها ونظرت إلى الوجه الأسمر وتساءلت إذا كان يدرك حقيقة عواطفها أو يسمع دقات قلبها السريعة. فارتعشت هي التي نجحت دائمًا في تمالك أعصابها، لكن قوة هذا الرجل المغناطيسية سيطرت عليها. هذا الرجل الذي هو أخوها بالتبني.

– لا أعتقد أن «جيلبير» يمانع... إذا كنت تفضل أن تقود بنفسك

سيارته... أعرف أن الرجال يشعرون بأمان إذا كانوا يقودون السيّارة. أحنت رأسها جانبًا بحركة رائعة وطفولية. فراحت شفتا «كارلوس» ترتجفان وقلبه يخفق بقوة. نظرت إليه وهي تبحث عن شيء تقوله لكي تقطع هذا الصمت العميق المضطرب الذي كان يعمّ في هذه اللحظة. لكن «كارلوس» هو الذي قال بصوت هادئ وناعم:

– حسنًا. سأقود السيارة بنفسي. أضاف يقول:

– هل يعجبك أن تتنزهي معي بعد ظهر اليوم؟ بإمكاننا أن نقود على طول الساحل باتجاه «كرباس» ونتوقف في مكان ما لنحتسي القهوة؟ هل تعتقدين أن «جيلبير» يستاء لهذا الأمر؟

– بل سيكون سعيدًا حين يراني أغيّر الرتابة وآخذ هواء منعشًا.

- 6 -

بعد أن قطع «كارلوس» مسافة 40 كيلومترًا على طول الساحل، خفف من سرعة السيارة وسأل «سارة» إذا كانت تحب زيارة قرية «أكانتو». هزت رأسها إيجابًا. لا يهمها أين تذهب بقدر ما يهمها أن تكون قربه. اجتازا مناظر ذات جمال تمجد الخالق وتقطع النفس. التلال المتموجة تحد سهلاً ساحليًّا ضيقًا حيث تنمو الأزهار الشائكة، والقمح والشعير. شرح «كارلوس»:

– لا يوجد طريق تجتاز قرية «أكانتو». فجبل «أوليمبوس» الذي يرتفع شمالا يُشكّل حاجزًا صعبًا. كانت القرية فعلا غريبة وتملك سحرًا غير

اعتيادي. أوقف «كارلوس» السيارة على جانب الطريق ثم نزلا معًا. وفي البداية لم يلتقيا بأي كائن بشري. فهمست الفتاة تقول:

– يا لهذا الهدوء... والسكون! هذه القرية تسحر الألباب... آه، هأنا أرى شخصًا! ابتسم الرجل الغريب وقال باللغة الإنجليزية:

– أهلا وسهلا بكما في قريتي. هل بإمكاني أن أقدم لكما المشروبات المنعشة؟ كان الرجل أسمر البشرة، قصيرًا وسمينًا، ذا شعر أسود وعينين سوداوين كالفحم. أشار إلى باب حديدي ودعاهم إلى ساحة منزله. أجاب «كارلوس» و«سارة» في الوقت نفسه:

– شكرًا جزيلا، نعم نحب أن نشرب شيئًا منعشًا. قال موجهًا حديثه إلى «سارة»:

– أمي تحضر الآن عصير الرمان الحلو... هل سبق أن ذقته ياسيدتي؟

– نعم.أحب هذا النوع من العصير بشكل خاص. سأل الرجل وهو ينظر إلى «كارلوس»:

– هل أنتما في عطلة هنا؟ إنه يحاول معرفة السبب: لماذا هذا القبرصي يتنزه مع هذه الفتاة الإنجليزية!

– هل أنت زوجته؟ أجاب «كارلوس» ضاحكًا:

– هذه المرأة هي أختي.

– أختك؟! إنجليزية وأنت قبرصي؟! أجابه «كارلوس» باختصار:

– تمامًا. لكن بعد فترة وجيزة شعر بالجرأة تجاه هذا الرجل الذي كان يشعر بفضول قوي. فشرح له دون حقد في صوته قائلاً:

www.rewity.com

– تبنى والداي «سارة». كان يبدو فرح المزاج كأنه نسي كليًا ما حدث له في طفولته فأضاف:

– كان والداي يعيشان في «إنجلترا» وكانا صديقين لوالد هذه الفتاة.

– هذا لطف منهما أن يربياها. في هذه الأثناء خرجت امرأة من حجرة معتمة وهي ترتدي الملابس السوداء. ابتسمت لهما ترحابًا وهمست شيئًا باللغة اليونانية. فترجم «كارلوس» وهو يضع ذراعه حول كتفي «سارة»:

– مرة أخرى... تقول لنا أهلا وسهلا. رافقها إلى الكرسي فجلست «سارة» واستدار «كارلوس» نحو المرأة ليثرثر معها باللغة اليونانية. وبعد قليل قال لها ابنها كلمة فاختفت داخل المنزل، فقال الرجل لـ«سارة»:

– أمي لا تتكلم الإنجليزية. ذهبت تجلب لكما شيئًا للشراب. جلس قرب «كارلوس» وراح يتفحص الفتاة. ابتسمت داخليًا وفكرت في الوقت نفسه في أنه لم يسبق لها أن رأت «كارلوس» يتأمل النساء هكذا. بل على العكس يبدو وكأنه لا يبالي بهن. سأل الرجل:

– هل تعيشان في «قبرص»؟ وأضاف في الحال أنه يدعى «غلافكوس» ووالدته تدعى «مارولا». أجاب «كارلوس» بأنه يعيش في الجزيرة بينما جاءت «سارة» إلى هنا للعمل:

– مديرها يؤلف كتب الأسفار.

– هل سيكتب عن «قبرص»؟ أجابت «سارة» مبتسمة:

– نعم. سنبقى هنا سنة تقريبًا.

– إذا كتب عن قريتنا فسيؤمها السياح. احتجت قائلة:

– لكن، أنتم لا تحتاجون إلى السياح. نظرت حولها: البساتين والتلال والبيوت المربعة البيضاء ومداخلها المزروعة زهورًا والنباتات المتسلقة... لا ضجة ولا صوت... قرية تنتعش تحت الشمس اللاهبة، النوافذ الخشبية مغلقة للحماية من الضوء القوي والحر القاسي. ثم تابعت قائلة:

– إنها قرية هادئة ورائعة جدًا. السياح سيسيئون إلى كل هذا السكون وهذه الروعة. قطب «غلافكوس» حاجبيه ورفع كتفيه العريضتين وقال:

– لكنهم يجلبون المال وهذا ما ينقصنا هنا. انظري، «بيلابي» مزدهرة لأن السيد «روريل» كتب عنها. عدد كبير من الأجانب يقصدونها، كما يعيش فيها عدد لا بأس به من الإنجليز. وهذا يدر على القرية المال الكافي لتزدهر وتعمر. قال «كارلوس» وهو يهز رأسه:

– لن تشبه «أكانتو» «بيلابي» أبدًا.

– صحيح... ليس عندنا كنيسة وهذا ما يحبه الأجانب. سأل «كارلوس» «سارة»:

– هل زرت أية كنيسة هنا يا«سارة»؟

– مرة زرت كنيسة برفقة «جيلبير». لكننا لم نبق هناك سوى وقت قصير. أعتقد أن المجال سيسمح لنا بزيارتها مرة ثانية.

– لديّ أصدقاء يعيشون قرب كنيسة... فنان وزوجته. سآخذك لزيارتهما يومًا ما.

– يعيش هنا عدد لا بأس به من الفنانين. أليس كذلك؟

– إنه المكان المثالي لهم. رفع «كارلوس» عينيه عندما وصلت «مارولا» حاملة صينية المشروب وقال باللغة اليونانية:

– المعذرة لأننا عذبناك. كان وجه «مارولا» يشع فرحًا. وأجابت بأنها فرحة جدًا لاستقبال الزائرين. سأل «كارلوس» وهو يقرب كرسيًا آخر:

– هل تنضمين إلينا؟ نظر إليه «غلافكوس» بدهشة. ليس من عادة القبارصة دعوة النساء إلى الجلوس. نظرت «مارولا» نحو ابنها ثم هزت رأسها ببطء وابتسمت مرة أخرى قبل أن تدخل المنزل. نظرت «سارة» إلى «كارلوس». نعم إنه يشعر مثلها بأنه يجب على «غلافكوس» أن يدعو والدته إلى الجلوس واحتساء الشراب معهم. راح الثلاثة يشربون ويثرثرون ومر الوقت بسرعة. أخيرًا أعلن «كارلوس» أنه حان وقت العودة. توقفا في قرية صغيرة في طريقهما ليحتسيا الشاي فجلسا في حديقة مقهى فارغ تمامًا إلا منهما. الحديقة مزروعة بأشجار الليمون والبرتقال. وخلفها بستان واسع محمي من الرياح بصف من شجر السرو. أمام المقهى يمتد الحقل حتى التلال ومن ثم تبدأ الجبال. قال «كارلوس»:

– هل تعرفين أسطورة «أفروديت» وكيف ولدت؟

– أعرف أن «بافوس» هو المكان الذي ولدت فيه «أفروديت».

– لا، ولدت «أفروديت» من رغوة الموج. هناك قصة مختلفة حول ولادتها في إلياذة «هوميروس»، لكن الأمر أكثر شاعرية أن تولد من البحر.

– أعرف أيضًا أنه كان لها عشيق يدعى «أدونيس» قتله خنزير بري. إنه موت محزن. لكن الأساطير غالبًا ما تنتهي نهاية غير سعيدة.

– «أدونيس» لم يكن سوى واحد من عشاقها. فزوجها «إيغايبستوس» كان رمز النار عند اليونانيين. ضحكت «سارة» وكانت تحب لو يكمل «كارلوس» قصصه حول الأساطير اليونانية، لكنه نظر إلى ساعة يده وقال إن الوقت قد حان ليعودا إلى «لابيتوس». كان «جيلبير» يقرأ في الشرفة ما كتبه خلال النهار. ولما رآهما وضع أوراقه على الطاولة وسألهما مبتسمًا:

– هل قمتما بنزهة جميلة؟ أجابت «سارة» بحرارة:

– كانت نزهة رائعة وموفقة. ذهبنا إلى قرية «أكانتو» وفي طريق العودة توقفنا في مقهى صغير واحتسينا الشاي. نظر إليها «كارلوس» بغرابة فاحمرت وجنتيها لإدراكها الحماسة الزائدة لديها. ليس من الغريب أو المدهش اجتياز أربعين كيلومترًا على طول الشاطئ والعودة بالطريقة نفسها. اعتذرت «سارة» إلى الرجلين وصعدت إلى غرفتها. ومن نافذتها المفتوحة راحت تتأمل السهل الضيق الذي يهبط حتى البحر. ضمت يديها المرتجفتين وقالت لنفسها: «هذا الجنون يجب أن ينتهي....» لا يبدو أن «كارلوس» يشعر بشيء تجاهها غير العاطفة الأخوية. واليوم عندما شرح لـ«غلافكوس» مدى قرابته منها، لم يتردد لحظة واحدة. نعم، يجب عليها –من الآن فصاعدًا– أن تتحلى بالتعقل، وإلا ذاقت أمر العذاب وأضاعت فرصة العمر لأجل طويل. توجه «لينوس» نحو الفتاة بينما كانت تدخل إلى قاعة الفندق حيث

كانت تجري حفلة الكوكتيل التي أقامها «كارلوس» قائلاً:

– «سارة»، كم أنا مسرور لرؤيتك!

– كيف تمضين وقتك؟ هل تعملين كثيرًا؟ ابتسمت وهزت رأسها والتقت نظراتها بنظرات «كارلوس». ولشدة دهشتها لم يكن غير مبال، لكنه كان قاسي اللمحات. ماذا يعني ذلك؟ في المرة الأخيرة لم يكن مكترثًا لـ «لينوس» ولحظه مع «سارة». ولا لردة فعل الفتاة تجاه مقدمات وانجذاب الشاب القبرصي إليها. لكنه اليوم يبدي فضولا غريبًا. أزاحت نظرها عن «كارلوس» لكنها ظلت تشعر به محدقًا إليها وأجابت آليًا:

– ذهبت مع «جيلبير» إلى «بافوس».

– آه! جزيرة الحب. هل تأخذ هذه الجزيرة أهمية كبيرة في الكتاب؟

– كلا، «جيلبير» لا يميز أية منطقة معينة بل يفضل إيقاظ اهتمام القارئ كي يشعر برغبة في أن يزور كل أنحاء الجزيرة بنفسه. احتج صارخًا:

– لكن «فانوس» تستحق فصلا وحدها. هنا، نعلق اهتمامًا كبيرًا على الحب وأنت يا «سارة»؟ ارتجفت رموش عينيها الطويلتين وأجابت بحذر:

– لم يتسن لي الوقت كي أفكر في ذلك؛ لأنني أعيش حياة متكاملة. أرجع رأسه إلى الوراء وراح يقهقه ضاحكًا. فالتفت إليه عدد كبير من الأشخاص وراحوا يبتسمون. «لينوس» الوسيم يغازل الفتاة الإنجليزية

وهذا موضوع شيق للمدعوين القبارصة، الذين كانوا يأملون أن يميل قلبه إلى إحدى بناتهم أو شقيقاتهم. صرخ «لينوس» قائلا:

– ليس عندك وقت للحب! كيف باستطاعة فتاة بجمالك أن تقول هذا الكلام؟ نظرت إليه نظرة فيها إنذار وأجابت:

– توصلت إلى الاعتقاد أنك رجل متملق. ابتسمت لتعوض عن قساوة صوتها وأضافت:

– ومديحك يبدو لي سطحيًا.

– كلا! أمسك بذراعها ونظر إلى مكان منعزل. فرأى شجرتي نخيل ووراءهما كرسيان، فقال لها:

– تعالي معي. أريد أن أبرهن لك على صدقي. شعرت بتنفسه يلامس وجهها، فرجعت إلى الوراء محاولة التخلص من قبضته. فقطب حاجبيه وهمس في أذنها:

– أرغب في الزواج بك يا«سارة». منذ اللحظة الأولى أردتك أن تصبحي زوجتي. أنا رجل غني ولا أرفض لك شيئًا... قاطعته قائلة:

– «لينوس»، لست أنوي الزواج، لا بك ولا بغيرك. وأريد أيضًا أن أفهمك أنك لا تعرفني جيدًا، وهذا خطر عليك أن تتزوج بامرأة مختلفة عما تتصوره بها. هز رأسه بثقة وقال:

– لا أتصور شيئًا، وأعرف من عينيك أن قلبك حنون وأنك فتاة صادقة. ابتسمت «سارة» وحولت نظرها برهة صوب «كارلوس» الذي كان يدير ظهره ويثرثر مع موظف شاب في السفارة الأمريكية.

– ما دمت تعرف أني صادقة، يجب عليك إذن أن تفهم لماذا أرفض

الزواج بك. ليس لك قيمة عندي وإضافة إلى ذلك، أنا لا أحبك...

– بإمكانك أن تتعلمي كيف تصلين إلى حبي. سأكون أستاذك. في الشرق، الحب فن وأعتقد أن المواهب لا تنقصني، حتى ولو لم أعد أهتم بالنساء منذ عدة سنوات. ابتسمت «سارة» مجددًا. قررت أن تعامله بلهجة المزاح، آملة ألا تجرح شعوره وتؤلمه. عليها أن تفكر في سمعة مديرها وألا تتشاجر مع أي عضو من البيئة التي يعاشرها «جيلبير». أجابت ضاحكة:

– لا شك في أنه لا تنقصك المواهب فيما يخص فن الحب... لكن تنقصك عزة النفس. رفع كتفيه وضحك بدوره وقال:

– ليس القبارصة برجال متواضعين، خاصة عندما يتكلمون عن انتصاراتهم الغرامية. ارتجفت رموش عيني «سارة» وبحثت بنظرها عن «كارلوس» ورأت «جيلبير» يتقدم نحوهما قائلاً:

– هل بإمكاني الانضمام إليكما؟ فهمت من نظرته إلى «لينوس» أنه جاء لينقذها. وأضاف يقول:

– آمل ألا أكون قد قطعت عليكما الحديث... السري؟ زم الرجل القبرصي شفتيه وهز رأسه مبتسمًا. جلس الثلاثة، وراح «جيلبير» يحدث «لينوس» بينما استرخت «سارة» في مقعدها ونظرت بشرود حولها فرأت الأضواء، والكؤوس والأقداح والجدران المزينة بالأشياء الفاخرة والسجاد الأحمر والزهور... إنه اجتماع حيوي. بعض المجموعات الصغيرة ظلت واقفة. وبعض الأشخاص جلسوا على الطاولات الصغيرة بعضهم يضحك ويمزح والبعض الآخر يتكلم بجدية

عن مواضيع هامة. تلألأت عينا «سارة» عندما التفت «كارلوس» إلى الوراء ولاحظها شاردة لا تعير انتباهًا للحديث الجاري بين «لينوس» و «جيلبير». فتوجه نحوها ونظر إليها لحظة قبل أن يقرب كرسيًا ويجلس بجانبها. ولمحت في نظرته تعبيرًا حزينًا. فكلما واجه مشكلة جديدة يبدو متوترًا ومضطربًا. ابتسم ولاحظت أنه يرغب في طرد القلق من عقله. قال بصوت خفيض:

– أعتقد أن «لينوس» يهتم بك أكثر من قبل. أجابت بلطف:

– لقد طلب يدي.

– ... و... ماذا كان ردك؟ نظرت إلى وجهه وشاهدت الغصة في حلقه. يا له من رجل غريب... لو كان بإمكانها أن تقترب أكثر منه، فما يزال لغزًا بالنسبة إليها. أجابت بسخرية:

– لقد رفضت. تهيأ لها أنها سمعت «كارلوس» يطلق زفرة ارتياح، أم أن مخيلتها قد خانتها.

– كنت متأكدًا أنه سيطلب يدك. زمت عينا «كارلوس» عندما نظر إلى «لينوس» المنسجم بالحديث مع «جيلبير»:

– قلت لك إنه سيطلب يدك في أقرب وقت ممكن.

– صحيح وأجبتك أن عملي يكفيني.

– وقلت لك إن من الطبيعي على المرأة أن تشعر برغبة في أن تصبح أمًا.

– لا تتزوج المرأة من أجل إنجاب الأولاد. أجاب بلهجة مرة:

– صحيح؟ لكن أحيانًا يكون الإنجاب سببًا للزواج. كان بعيدًا عنها

الآن ولم تكن قادرة... أو لم تجرؤ على الاقتراب منه. كانت تسمع أصوات «جيلبير» و«لينوس» والحضور، لكنها لم تكن تصغي إلى أحد، لأن سؤالاً ما كان يهدد ذهنها... ألا وهو هل تزوجت «أليسون» بـ«كارلوس» بهدف إنجاب الأطفال، فقط لا غير؟ نظر «كارلوس» إليها ليتأكد من صدقها وسألها:

– أنت، هل تضعين الحب في البداية؟

– بالنسبة إليَّ، الحب متعلق بالرغبة. ردد «كارلوس» بغرابة:

– الرغبة؟

– هل انصدمت؟ أقصد أن الحب والرغبة مرتبطان جدًّا إلى درجة أنهما أصبحا غير منفصلين. توقفت ثم أضافت:

– الرجل الذي سأحبه يكون ذلك الرجل الذي أرغبه... نظرت إليه «سارة» بعينيها الجميلتين المتوسلتين، وقلبها يأمل أن يفهم ماذا تعني كلماتها. ثم أضافت:

– سأحبه، إن كنت أحتاج إليه. وعندما أحتاج إليه، ذلك يعني أني أرغبه. ران صمت طويل ثم قال «كارلوس» بصوت متقطع:

– إذن الرجل الذي ستتزوجين به سيشعر دائمًا... أنك ترغبينه... كان كأنه يكلم نفسه، غير أنه ظل يحدق إليها، ثم أطلق زفرة طويلة حزينة... فاندهشت «سارة» وظلت تحدق إليه. تنفس عميقًا وأزاح نظره عنها كأنه يرفض قبول ما يراه. أخيرًا قال بصوت أجش:

– آه! «سارة». لماذا؟... قاطعه «جيلبير» ليسأله سؤالا لا قيمة له حول الحرفيين في الجزيرة.

– أخبرني «لينوس» بهم وخطر ببالي أن أخصص لهم فصلا في كتابي. في ثقة واتزان، أجاب «كارلوس» عن سؤال الكاتب. وبعد قليل بدأ الحديث يتشعب وانضم إليهم بعض المدعوين. وفي آخر السهرة وجدت «سارة» نفسها وحدها مع «كارلوس» فتبعا «جيلبير» حيث أوقف سيارته. لكن «جيلبير» اعتذر وذهب يقول لـ «كورني» كلمة أخيرة. فبدأت «سارة» الكلام قائلة:

– ماذا كنت تريد أن تقول لي عندما قاطعك «جيلبير»؟ كان شارد الذهن ومستندًا إلى السيارة ويده في جيب سترته. بدا يفكر ثم أجابها مبتسمًا:

– لا شيء له أهمية. فتح لها الباب كي تصعد في المقعد الخلفي. وبدوره جلس أمام المقود. ثم أدار وجهه لينظر إليها وقال:

– «سارة» الشيء الذي كنت أنوي قوله لا أهمية له. لم تقل شيئًا، لكنها شعرت بإرهاق وحزن كبيرين نظرت إلى ملامح وجهه القاسية وإلى فمه الحازم وذقنه البارز. كان بعيدًا عنها بأفكاره واقترب «جيلبير» من السيارة وصعد قرب «كارلوس» معتذرًا لتأخره. فقال «كارلوس»:

– لا سبب للاعتذار. هل تحدثتما في موضوع الكتاب؟

– نعم. كان «كورني» يحدثني عن مدينة «فاماغوستا» القديمة. وتذكرت أنني نسيت أن أطرح عليه سؤالاً معينًا. يبدو أنه على معرفة واسعة بتاريخ الجزيرة في القرون الوسطى. ابتعدت السيارة عن الفندق وأخذت طريقًا تحيط بالجبال، ثم هبطت على الساحل قبل أن تصعد من جديد نحو «لابيتوس». كان القمر بدرًا يضيء المناظر والقرى،

www.rewity.com

والبحر كان غامقًا وسريًا. على اليمين تمتد جبال «كيرينيا» إلى ما لا نهاية. الأضواء تلمع هنا وهناك. وقبب الكنائس البيضاء تبرز بوضوح تحت السماء الليلكية المليئة بالنجوم. عندما وصلوا إلى الفيلا توجه «جيلبير» إلى الباب. ساعد «كارلوس» «سارة» على النزول وظل ممسكًا بيدها. ثم همس بصوت حنون:

– تصبحين على خير. حدق إلى عينيها المتوسلتين الشفافتين الصافيتين، فاندهشت من تصرفه واضطربت كثيرًا. وتبيَّن لها أنه كان يرغب في أن يفشي لها بسر مهم، لكنه قرر أن يصمت في النهاية. لو يقبل أن يكلمها الآن، لكنه اكتفى بالقول إنه سيكون حرًا نهار يوم السبت وأن بإمكانه تمضية النهار برفقتها. وذهبت لتسأل «جيلبير» ما إذا كان سيحتاج إليها في هذا النهار. لكن الكاتب كان قد سمع كلام «كارلوس»، وفي الحال سمح لها أن تأخذ نهار يوم السبت عطلة. هتف «جيلبير» لـ«كارلوس» قائلا:

– عندي أهم سكرتيرة في العالم. لو أسمع كلامها لوافقت على العمل سبعة أيام في الأسبوع. قطب «كارلوس» حاجبيه. لا شك في أنه يفكر في أن «سارة» لا تحتاج إلى أن تعمل ما دامت قد حصلت على إرث محترم. أجاب «كارلوس» قبل أن يصعد إلى السيارة من جديد...

– «سارة» هي حقًا كنز ثمين. ثم أضاف قائلا:

– سآتي في الساعة التاسعة، يوم السبت يا «سارة». كوني جاهزة. تدخل «جيلبير» في الحديث قائلا:

– «سارة» تنهض من نومها في السادسة صباحًا كل يوم.

– مثلي أنا. من المستحيل أن أبقى في السرير والشمس مشرقة.

– وأنا كذلك. أستيقظ في مثل هذه الساعة، إذا لم يكن في ساعة مبكرة أيضًا.

– تصبح على خير يا «جيلبير». تصبحين على خير يا «سارة». ثم أقلع بسيارته وظلت «سارة» في الخارج تنظر إلى أضواء السيارة حتى اختفت. ثم توجهت إلى المنزل حيث كان «جيلبير» ينتظرها على عتبة الباب محدقًا إليها في فضول.

- 7 -

وصل «كارلوس» في الساعة التاسعة تمامًا. كانت «سارة» و«جيلبير» قد تناولا فطور الصباح قبل ساعة، جالسين في الشرفة المشمسة، يتحدثان عن «فاماغوستا» و«سلامين» حيث سيذهبان إليهما بعد حوالي أسبوعين. توقف «جيلبير» عن الكلام ليلاحظ ردة فعل سكرتيرته عندما سمعت عجلات سيارة على الطريق المليئة بالحصى والحجارة. ولاحظ أن عينيها لمعتا وأن شفتيها ارتجفتا بطريقة خفية. تنهد «جيلبير» واستقبل «كارلوس» بحماس. وقالت «سارة» بصوت هادئ:

– صباح الخير يا «كارلوس». رفعت رأسها لترى الوجه الجميل المطل عليها. رمقها «كارلوس» بنظرة إعجاب، وراح يتأمل فستانها القطني المعرق البسيط ويدها التي تعبث بنظارة سميكة. سأل «جيلبير» وهو

يقرب كرسيًا ليجلس «كارلوس» عليه:

– أين تنويان الذهاب؟ جلس «كارلوس» وأجاب مبتسمًا:

– على «سارة» أن تقرر.

– كلا أنت الذي يقرر يا «كارلوس». أنا لا أعرف الجزيرة معرفة كافية بعد.

– بإمكاننا الذهاب إلى «سلامين».

– سنذهب، أنا و«جيلبير» إلى هناك عما قريب... عندما ننهي ما نفعله في الوقت الحاضر.

– في هذه الحال، يجب أن نبحث عن مكان آخر. تدخل «جيلبير» في الحديث وقال:

– لا بأس بـ«سلامين». لا شك في أن «كارلوس» يعرف الكثير عن البلد ولا يهم إن زرتها مرتين. فالأمر شديد الإفادة.

– حسنًا. سأفرح بالذهاب إلى هناك، بعد أن سمعت الكثيرين يتحدثون عنها. قررا القيام بزيارة المدينة القديمة التي كانت إحدى أهم المدن في «قبرص». وخلال الطريق أخبرها «كارلوس» بتاريخ «سلامين» وكانت تصغي إليه باهتمام وشغف. أخبرها بأن الاسم آت من جزيرة «سلامين» اليونانية. ملك الجزيرة هو الذي بنى المدينة الواقعة على الشاطئ الشرقي، على بعد بضعة كيلومترات من «فاماغوستا». قالت «سارة» بعدما أنهى رفيقها الحديث:

– التاريخ مثير دائمًا. كانا يتأملان القمح الخصب وسهل «ميسايورا» الذي كانا يجتازانه. تابع «كارلوس» يقول:

– تاريخ هذه الجزر رائع للغاية. و«قبرص»، مثل معظم الجزر اليونانية، عرفت اجتياحات واحتلالات عديدة. لكن «اليونانيين» هم الذين كان لهم التأثير الكبير فيها. منحوا الجزيرة كل القصص الخرافية وكل الأساطير. فاليونانيون هم الذين اكتشفوا أن «أفروديت» ولدت في «قبرص».

– ملكنا «ريتشارد» قلب الأسد حكم هنا خلال مدة قصيرة، أليس كذلك؟ هز «كارلوس» رأسه وشرح لها أن خليفة «ريتشارد» هو الذي أسس هذه القصور الصليبية المبنية على قمم الجبال.

– كنت سأقترح عليك أن تزوري واحدًا أو اثنين من هذه القصور، لكنك سترينها في كل حال مع «جيلبير».

– نعم، ننوي زيارة كل الأماكن السياحية... كانت ترغب في أن تزور هذه الأماكن برفقة «كارلوس» أيضًا، لكنها لم تقل شيئًا. ثم ذكرته بأنه وعدها بأن يأخذها لزيارة أصدقاء له في «بيلابي».

– لم أنسَ يا «سارة». لكنهم في «اليونان» في الوقت الحاضر ولن يعودوا إلا بعد أسبوعين. ثم فتحت «سارة» الحديث حول ابنته «ريّان». فسألته عنها وكيف تمضي عمومًا عطلة الصيف الطويلة. فأجابها أنه يصطحبها إلى شاطئ البحر وأنهم يسافرون أحيانًا إلى «لبنان» أو «اليونان». فتخيلت «سارة» مقدار حزن هذا الأب الذي يقوم بجهد ليسلي ابنته الوحيدة اليتيمة.

– أليس عندها صديقات أو أصدقاء من عمرها؟

– هناك عدد قليل يسكنون قرب منزلنا. فوجئت بسكوت «كارلوس»

المفاجئ كأنه يشعر بصعوبة إكمال الحديث. أخيرًا قال:

– ويوجد صبي صغير في المنزل الذي تعيش فيه في الوقت الحاضر... وتتفق معه كليًا. ولما وصلا إلى «سلامين»، أوقف السيارة إلى جانب الطريق ثم راحا يأكلان السندويتشات والفاكهة التي اشترياها في طريقهما. قالت «سارة» وهي تسند ظهرها إلى المقعد:

– هذا الطعام شهي ولذيذ. جمع «كارلوس» الفنجانين والصحون المصنوعة من البلاستيك ورماها في صندوق القمامة. بينما كانت «سارة» تنظر إلى امرأة ورجل خرجا من سيارة اصطفت قرب سيارة «كارلوس». أمسك الرجل يد المرأة وتوجها معًا نحو المنظر الجميل. فوجئت «سارة» أنها تحسدهما، هي التي كانت تعتقد دائمًا أن عملها يكفيها. وعاد «كارلوس» وتلألأت عينا «سارة». اقترب منها بخطى واسعة. هل يعرف أن هيئته رفيعة ومهيبة؟ ظل مدة طويلة واقفًا أمامها ينظر إليها. ولدهشتها، أمسك يدها بحركة امتلاكية جعلتها ترتعش. ثم أمسك بذراعها وحذا حذو الزوجين الشابين اللذين كانا يمشيان أمامهما.

كان يومًا مثاليًا للغزل. تمشيا بين آثار مدينة «سلامين»، المدينة التي كانت في قديم الزمان مزدهرة، وقد بناها أحد أبطال حرب طروادة. لكن للأسف دمرتها الهزة الأرضية. أما الأعمدة الرخامية والحمامات وبقية الآثار فتعود إلى عهد الرومان. قال «كارلوس» بعد صمت طويل:

– هذا هو الملعب، ربما أدركت ذلك.

– لا، لكنه جميل جدًا. كيف كانت المدينة في الماضي؟

– من الصعب تصورها. لا شك في أن هذه المدينة كانت مليئة بالمنازل الفاخرة والمخازن والدكاكين والمسارح والهياكل والمعابد. أما الديكور الأساسي فهو المرفأ والبحر.

– إنه لشيء محزن... ثم أضافت بلهجة احتقار للذات:

– أنا عاطفية دون معنى، ما حدث في الماضي قد مضى، كما يقول «جيلبير» ولا يمكننا أن نعيش الحياة من جديد. ردد في لهجة حالمة:

– ما حدث في الماضي قد مضى. كان شاردًا في ذكرياته. فقالت بصوت متوسل:

– «كارلوس»، أرجوك، لا تفكر طويلاً في الماضي. طفولتي لم تكن أسعد من طفولتك، مهما فكرت في الأمر. كنت أفضل محبة وعاطفة... أخي... بدلا من الجاه والمال! كنت أحتاج إليك يا«كارلوس»، لكنك لم تلاحظ ذلك. كانا واقفين قرب بعضهما على مدخل الملعب. أمامهما تبرز أعمدة الرخام العالية وتاجها الكورينثي. فرددت آملة أن يصدقها:

– كنت أحتاج إليك. التفت إليها بهدوء وبطء وسألها بصوت مبحوح من شدة الانفعال:

– هل كنت حقًا تحتاجين إلى أخ؟ خفضت عينيها وقالت هامسة:

– نعم يا«كارلوس». في الأيام الماضية كنت أريد أن أكون قريبة منك، كما تكون الأخت قريبة من أخيها. ولما كبرت في السن، حاولت أن أفهمك إلى أية درجة وضعنا هذا كان يؤلمني... قال بلهجة قاسية فجأة:

– يؤلمك؟ كنت تشفقين عليّ؟

– «كارلوس»، لا تسئ الظن بي. عندما أقول لك إني كنت أحتاج إليك، أتكلم بصدق وإخلاص. ابتسم من طرف شفتيه. فما زال يشعر باضطراب حيال أمر ما يحيره. لو بإمكانه فقط أن يفشي لها سره الذي يعذبه!

– آسف، يا عزيزتي... توقف عن الكلام عندما تقدمت مجموعة من الأمريكيين وقفت قربهم لتتأمل المنظر لكنها سرعان ما ابتعدت وراء الدليل وآلات التصوير. تابع «كارلوس» يقول:

– لا شك في أنك تعتبرينني شديد الحساسية، أليس كذلك؟

– أفهم ما تشعر به. وضعت يدها على ذراعه في خجل وقالت:

– لندع الماضي جانبًا. طفولتنا لم يعد لها أهمية اليوم. وما يهم هو الحاضر والمستقبل. سيتوصل يومًا إلى إدراك ما يدور في أعماق قلبها وعقلها وكيانها. وإذا وافق على أنها تحتاج إليه ربما يبدأ في النظر إليها بمنظار جديد. أخيرًا قال:

– أنت على حق. ودون انتظار أو توقع، أمسك يدها وضغط عليها بحنان. بدا أقل قلقًا، كأنه اتخذ لنفسه قرارًا مفاجئًا هدأ من روعه وقلقه. ارتبكت «سارة» وأصابتها الحيرة. لكن، يده بيدها ونظرته الناعمة الحنونة جعلتها تنسى كل الباقي، واستسلمت للسعادة المنغمسة فيها. تلألأت عيناها وارتجفت شفتاها وعرفت أن تصرفها سيؤثر في «كارلوس»... وتأكدت أنه بدأ يعرف ما هي حقيقة عواطفها تجاهه. ظل ممسكًا بيدها طوال الوقت بينما كانا يتمشيان بين الآثار. ثم سألها بحنان وتسامح:

– هل أعجبك المكان؟

– كثيرًا. لا أتذكر أني كنت سعيدة في حياتي أكثر مما أنا عليه الآن.

– وأنا كذلك. وتذكرت «سارة» ما قاله لها «جيلبير» بأن هناك شيئًا مهمًا لم يعرفه «كارلوس» في زواجه. طريق العودة كان هادئًا. الاثنان منغمسان في أفكارهما الخاصة. لكن «سارة» كانت ترمقه من وقت إلى آخر بنظرة جانبية محاولة أن تميز تعبير وجهه. وفيم يفكر، يا ترى؟ عندما جاءت «سارة» لتزور «كارلوس» في المرة الثانية وجدت «ريان» معه فاستقبلتها بدهشة وابتسمت لها بحنان كبير. وقالت:

– عمتي «سارة»، أنا سعيدة لرؤيتك، قال لي أبي إننا سنذهب معًا إلى البحر!

– صحيح؟ أمسكت الفتاة الصغيرة يد عمتها فشعرت «سارة» بدفء في قلبها. توجها معًا إلى الشرفة حيث كان «كارلوس» جالسًا يتفقد أوراقه وبدأ يجمعها، فابتسمت له «سارة» ورأت حينئذ تجعيدة حزينة وقاسية على فمه. غير أنه رد عليها بابتسامة لطيفة ورأى يد ابنته تضغط بقوة على يد «سارة». حينما قالت له:

– قالت لي «ريان» إننا سنذهب جميعًا إلى البحر.

– إذا كنت توافقين على ذلك. فكرت في أن ذلك سيفرح الصغيرة، لأنها تحب السباحة كثيرًا وقد مضى عليها أسبوع بكامله دون أن تمارسها. بإمكاننا أن نبقى هنا ونسبح في بركة السباحة، لكن أقترح أن نذهب إلى البحر ما دام الطقس جميلا.

– هذا يسرني أيضًا. لكنني لم أجلب بزة السباحة. لذا يجب أن أمر بالفيلا... لم يكن على الشاطئ إلا القليل من الناس. لكن مع مرور الوقت بدأ السياح يتوافدون حاملين الشماسي الملونة. اعتمرت «ريّان» قبعة السباحة كي لا يتلف شعرها، بينما «سارة» سبحت عارية الرأس. ولما جلس الجميع على الرمال، لمست الفتاة شعر «سارة» المبلل بخجل وسألتها:

– هل تجدين متعة عندما تسبحين عارية الرأس؟

– إنها متعة رائعة يا«ريّان». نظرت «سارة» بسرعة إلى «كارلوس» الذي كان ممددًا ومكتف اليدين وراء رأسه. فسألته:

– هل بإمكان «ريّان» أن تسبح دون أن تضع قبعة السباحة؟

– لكنها ستفسد بذلك شعرها.

– سأساعدها على غسله عندما نعود إلى المنزل. قطب حاجبيه وقال:

– حسنًا، ما دمتما متآمرتين عليّ. شعرت «سارة» بأنها نجحت في تحقيق الخطوة الأولى نحو النصر. وهذا ما تم بالفعل. فبسرعة غريبة أصبحت «ريّان» الفتاة الصغيرة التي يجب أن تكون. تضحك في أغلب الأحيان، وتجلس بارتياح على الكرسي دون أن تخاف على فستانها. تضيع شرائط شعرها وتلعب (الاستغماية) وراء الأشجار وترتطم بالحجارة وتجرح قدميها أو يديها. وفي آخر النهار، أصبح فستانها ووجهها بلون واحد، لكن مزاجها كان يشرق فرحًا. في بادئ الأمر لم تعجب مربيتها بالأمر، لكن «سارة» ربحت المعركة بمرونتها ولطفها.

وبدا الجميع أكثر فرحًا وحرية حتى «كارلوس» نفسه فقد ظهر الاسترخاء عليه. كان يقيم حفلات العشاء ويدعو إليها «سارة» و«جيلبير» وغيرهما من الأصدقاء. كما كان يزور «جيلبير»؛ ليعطيه بعض المعلومات عن العادات والتقاليد الشائعة في الجزيرة، وعن الأعياد والحياة الزراعية التي يعيشها القبارصة. كما حضروا معًا عدة أعراس قروية. ودُعوا مرة إلى قضاء ثلاثة أيام في إحدى القرى لحضور عرس قروي.

في اليوم الأول كان الجميع منهمكين في تحضير حفل العرس بذبح الدجاج والأغنام وتحضير الفطائر والخضر والسلطات لما يقارب ألف مدعو. هتفت «سارة»:

– انظروا إلى هذا الخروف المسكين! هرب خروف من يد الجزار وراح يركض في الساحة بهلع فلحق به رجل حاملا سكينًا كبيرة.

– يا لهذا المنظر المقيت! أزاحت نظرها كي لا ترى شيئًا، لكن الآخرين كانوا يفرحون برؤية هذا المنظر ولما توصل الجزار إلى القبض على الخروف ذبحه في الحال. أما الرجل المختص بذبح الدجاج فكان يعلقها على عصا طويلة. وكلما نزل فروج يقطع له رأسه وهكذا بالتتالي. صرخت «ريّان» مستغربة:

– أبي انظر إلى هذا الماعز الصغير أليس جميلا بشعره الأبيض؟!

– نعم. لكنه كان ينظر إلى «سارة» الحزينة. فهي لا تعرف أن عليهم أن يقتلوا هذه الماشية من أجل إطعام المدعوين. الجميع يعملون ويغنون. المضيفات يعلقن الشرائط والزينة على سرير العرس ويضحكن. وفي اليوم التالي كان الجو يشبه كرنفالا يعم القرية كلها. الجميع يرقصون على

موسيقى البوزوكي ويضحكون ويثرثرون بطيبة. في الصباح جاء قس ذو لحية كثيفة ليحلق ذقن العريس. وأصدقاء العريس المقربون حضروا هذا المشهد. وخلال هذا الوقت راحت مضيفات الشرف يزينّ العروس بأحلى زينة. والد العروس أحضر إلى المنزل الفراش الخاص بالزوجين، بعد أن حمله على كتفه، وكان من جهاز العروس مع الفضيات ومئات الهدايا، كلها معروضة للمدعوين داخل المنزل.

الموكب توجه أخيرًا إلى الكنيسة البيضاء المنتصبة في آخر الشارع الرئيسي. كانت العروس تحمل باقة زهر ومضيفات الشرف يحملن بأيديهن الشموع الكبيرة المضاءة والمزينة بالشرائط العريضة. «جيلبير» و«سارة» يدونان المعلومات بصورة مستمرة. فالكاتب وجد هذا الحفل مسليًا والناس يضحكون ويثرثرون ومعظمهم لايصغون إلى أية كلمة. الأهل والمدعوون لا ينزعجون من مقاطعة القس طالبين أن يسمح لهم بأخذ الصور. يتوقف القس لحظة، يرمقهم بابتسامة عطف ويعطيهم الضوء الأخضر. وفي آخر الحفل، يوقع كل المدعوين أسماءهم على الشريط الطويل ليحفظه العروسان مدى الحياة.

والوليمة تستمر ساعات متواصلة مع الرقص والغناء. والعروسان يوزعان الحلوى على كل المدعوين ثم يرقصان. وخلال الرقصة يأتي كل واحد ليعلق ورقة نقدية على ملابسهما. وفي آخر الرقصة، تكون بزاتهم مغلفة بالأوراق النقدية. قال «جيلبير»:

– إني أراهن على أن العروسين ربحا أكثر من ألف ليرة. الذي جاء بهذه الفكرة، لا شك في أنه رجل ذكي للغاية. قالت «ريّان»:

– أنا، لا أحب أن يعلق المدعوون الأوراق النقدية على فستاني الأبيض الجميل. وأنت يا عمتي «سارة»؟

– وأنا كذلك يا «ريّان». ابتسمت الفتاة الصغيرة وضغطت بقوة على يد عمتها. فامتلأ قلب «سارة» بالحنان وعرفان الجميل.

– الدبابيس تفسده، أليس كذلك؟

– نعم، طبعًا.

– العروس تحب المحافظة على ثوب عرسها إلى الأبد، أليس كذلك؟

– طبعًا. قامت «سارة» بجهد كبير كي تنظر إلى «كارلوس». تود من كل قلبها أن ترى تعبير وجهه، لكنها لا تريد أن تفضح نفسها. ظلت «ريّان» تتابع الحديث معها دون أي تعب. وأخيرًا هدأت. وفي الليلتين الفائتتين نامت مع «سارة» في منزل صغير يملكه أهل العروس. لكن حان وقت العودة. ولما وصل الجميع إلى منزل «كارلوس» قال هذا الأخير:

– لماذا لا تدخلان لحظة؟ ربما تريدان تناول العشاء... صرخ «جيلبير» قائلا:

– يا إلهي! لا! أنا لن أتعشى الليلة. ثم نظر إلى «سارة» وقال:

– لكن، ربما أنت يا«سارة» جائعة. هزت رأسها وقالت:

– أكلت لمدة أسبوع على الأقل.

– في هذه الحال سنتناول شيئًا آخر في آخر السهرة. سألت «ريّان» وهي تنظر إلى والدها:

– هل بإمكان عمتي «سارة» أن تضعني في السرير هذا المساء؟ فسأفرح لأنها تقرأ لي القصص الجميلة.

– إذا كان ذلك لا يزعج «سارة»؟

– أبدًا بالعكس هذا يفرحني. ابتسمت بحنان للفتاة وقالت:

– تعالي يا ملاكي. ستأخذين حمامًا ثم سأقرأ لك قصة عندما تذهبين إلى الفراش.

- 8 -

أمضى «جيلبير» و«سارة» عشرة أيام في «فاماغوستا». راحا يتنقلان في أرجاء المنطقة باحثين عن عناصر مهمة للكتاب. قال «جيلبير» يوم كانا جالسين يحتسيان عصير الليمون في ساحة المدينة القديمة:

– هناك أمور كثيرة يجب كتابتها. لكننا سنضطر إلى حذف بعض المقاطع كي لا يصبح الكتاب طويلا جدًا... تقدم منهما صاحب المقهى ليسألهما إذا كانا يريدان مزيدًا من الشراب. ثم أضاف:

– سيكون ذلك على حسابي. قال «جيلبير»:

– طبعًا لا. لكني سأشرب كأسًا أخرى وأنت يا«سارة»؟ هزت رأسها إيجابًا. ورفض الرجل أخذ ثمن الشراب. فتعجب الكاتب وسكرتيرته ونظرا إلى بعضهما مندهشين. القبارصة اليونانيون والأتراك، أشخاص مضيافون. وقال «جيلبير» و«سارة» وهما يغادران المقهى:

– شكرًا جزيلا.

– هل ستعودان إلى «فاماغوستا»؟

– إذا اضطررنا إلى ذلك. تساءلت «سارة» عما إذا كان «جيلبير» سينفذ نصائح «كارلوس» ويقرر قضاء أيام تقاعده في «قبرص». فهي لا تصدق بأنه سيتقاعد يومًا ما، لكن بإمكانه أن يغادر «إنجلترا» ويستقر نهائيًا في الجزيرة. توجه «جيلبير» و «سارة» إلى الكاتدرائية الكبيرة التي بنيت على طراز الهندسة الغوطية في عهد الملك «لوزينيان». وذكّر «جيلبير» سكرتيرته بأن الملوك القبارصة كانوا يتوجون أولا في العاصمة «نيقوسيا»، ثم يمشون في مظاهرة كبيرة تبدأ من العاصمة حتى المدينة حيث يتم تتويجهم هناك، لكن تحولت الكاتدرائية إلى جامع عندما انتصر الأتراك على أبناء «البندقية». وبقيت جامعًا لأن في «فاماغوستا» يعيش القبارصة الأتراك فقط. ومن الجهة الثانية للساحة قصر بندقي رائع لم يبق منه إلا واجهته، وقبب ثلاث تتمركز على أعمدة من القرميد، أخذت من هيكل «سلامين». قالت «سارة» التي كانت تدون ما يمليه عليها «جيلبير»:

– إنها مدينة محض شرقية. المئذنة الإسلامية تعلو الجوامع، وبائعو البقول في الشوارع... اشتغلا بقية النهار دون توقف، وفي المساء كانا متعبين لكنهما مسروران من نهارهما. فتوجها إلى المقهى لتناول طعام العشاء.

وفي اليوم التالي، آخر يوم في «فاماغوستا»، قاما بزيارة الكنائس برفقة مدير الآثار التاريخية الذي عرض خدماته عليهما وأخذهما حيثما أرادا. أخيرًا توجها إلى برج «أوتيللو» وأخذا صورًا عديدة لجدرانه

القوية العارمة. قال «جيلبير» عندما خرجا من المدينة:

– آمل أن أكون قد أخذت كل ما هناك من معلومات حول المدينة.

حيّاهما ضابط تركي مبتسمًا، فأطلقت «سارة» زفرة امتنان وقالت:

– الحياة هادئة وممتعة على هذه الجزيرة. سأحزن عندما يحين الوقت للرحيل. لم يرد «جيلبير» على تعليقاتها، لكنها شعرت بأنه يفكر فيما قالته فأضافت تقول:

– هل تفهم ما أقصده؟

– تقصدين ما يجذبك إلى هذه الجزيرة؟ أعتقد أن ضيافة السكان وصدقهم وحرارتهم، هي أول ما يجذبك هنا. لكن هناك الجزيرة التي أنعم عليها الخالق بالطبيعة والطقس الجيد والمزروعات الفريدة والشواطئ الرائعة والأماكن الأثرية الفاتنة. هناك البحر والجبل. أعتقد أن جبال «ترودوس» ساحرة!

– هذا ما سمعته أيضًا. ثم سكتت وراحت تفكر في «كارلوس» وفي تصرفه الغريب. لا شك في أن مشكلة عويصة تشغل باله. بدا في مرحلة ما أنه حل هذه المشكلة، لكنه يبدو الآن من جديد مضطربًا للغاية. تنفست «سارة» الصعداء وتساءلت عما إذا كانت أمانيها كلها ستضمحل، قاطع «جيلبير» فجأة حبل أفكارها وراح يحدثها عن عمله. ولما وصلا إلى الفيلا، وجدا عددًا لا يستهان به من الدعوات.

قال «جيلبير» عندما جلسا في الشرفة بانتظار العشاء:

– أمامنا سهرات ممتعة. بدأت تقول:

– بإمكاننا أن نرفض بعضًا منها. هز رأسه وقال:

– لن يكون الأمر سهلا أن نقبل بعضها ونرفض البعض الآخر. يجب الاستسلام لقضاء حياة عصرية ياعزيزتي. وربما حان لنا الوقت لندعو الجميع إلى حفلة في الفيلا فما رأيك؟ هزت رأسها وتناولت رسالة وجهت إليها خصيصًا. فتحتها. إنها من «كولن». ابتسمت وقالت:

– آه! هذا لطف منه! رفع «جيلبير» حاجبه متسائلا وشرحت له «سارة» أن ابن أخيه سيصل إلى هنا خلال الأسبوع المقبل ليمضي عطلة أسبوعين في «قبرص».

– يأمل ألا نكون في منطقة أخرى عند وصوله. وأكد لنا أن بإمكانه تغيير وقت إقامته إذا كانت الظروف تتطلب ذلك. هز «جيلبير» رأسه ورمق سكرتيرته بنظرة غريبة وقال:

– أنت و«كولن» كنتما دائمًا صديقين عزيزين أليس كذلك؟

– نعم. منذ اليوم الذي عرفتني إليه فهناك أمور عديدة مشتركة بيننا. كانت سعيدة لرؤيته من جديد، لتعرفه إلى «كارلوس» و«ريّان» فـ«كولن» يحب الأولاد. وتساءلت «سارة» مرارًا لماذا لم يتزوج حتى الآن. لو سألته لرد عليها بفعل المزاح والمناكدة: «أنا أتزوج، أنا؟ لكنني أنتظر أن تقرري الزواج بي». ردد «جيلبير» حالمًا:

– أمور عديدة مشتركة بينكما. أمور عديدة... ولا شيء أكثر. ابتسمت وقالت:

– لكن هذا لا يكفي كي نخوض معركة الزواج.

– آه لو تعرفين كم كنت أتمنى هذا... قطب حاجبيه وأضاف:

– ولكني، لست واثقًا بذلك. غير أنني أحب رؤية «كولن» متزوجًا

وأبًا. العزوبة لا تليق به. رمق سكرتيرته بنظرة غريبة مرة أخرى وقال:

– «كارلوس»... وأنت...؟ توقف فجأة وللمرة الأولى منذ أن تعرفت إليه، تشعر «سارة» بأن الكاتب شعر بانزعاج لأنه تطرق إلى هذا الموضوع. ترددت لحظة قبل أن تبوح له بصوت منخفض:

– أحبه يا«جيلبير». تناول «جيلبير» كأسه وترك نظره يحدق إلى تلة الرسائل أمامه. وبحركة شاردة رماها جانبًا وقال أخيرًا:

– وهو؟ كيف يتصرف معك؟ لم يسألها ماذا يشعر «كارلوس» تجاهها، كأنه عرف أن «كارلوس» لم يعبر لها بعد عن حقيقة عواطفه تجاهها. فتجاهلت السؤال وقالت:

– هل فوجئت باعترافي؟

– كلا. كنت أشك في ذلك منذ وقت بعيد. عضت على شفتيها وقالت:

– سأشعر بالحمق إذا عرفت أن «كارلوس» لا يحبني. لم أكن متأكدة تمامًا أن عاطفتي كانت بديهية وجلية.

– إنها هكذا تمامًا، بالنسبة إليّ فقط، ذلك لأنني أعرفك جيدًا. كانت ملامح وجه «جيلبير» ناعمة وقلقة في آن واحد فقال:

– آمل بكل صدق أن يكون «كارلوس» يحبك هو أيضًا. وخفض عينيه نحو كأسه ثم ظل صامتًا منغمسًا في حبل أفكاره. أخيرًا اتخذ قرارًا وقال لها إن «كارلوس» رجل غريب ولا يمكن لأحد أن يتوقع منه شيئًا. كان واضحًا أنه مهتم بها لكن من المستحيل معرفة أعماق شعوره نحوها طالما لم تبح له بعد بعاطفتها وصدق مشاعرها. أخيرًا سألها

«جيلبير»:

– هل أنت واثقة بحبك لـ«كارلوس»؟

– لقد وقعت في غرامه منذ أن كنت في السادسة عشرة من عمري.

– في السادسة عشرة؟ نظر إليها بدهشة وقال:

– لم تخبريني بالأمر أبدًا. ولماذا لم أفطن لذلك؟ تذكرت السهرة التي أقيمت بمناسبة الذكرى الذهبية لزواج جدي «كولن» عندما قررت أن تبوح لـ«كولن» بسرها. لقد أخبرته بالكثير لكنها حافظت على هذا السر لها.

– لو قلت لك ذلك لكنت اعتبرته حب المراهقة العابر. أليس كذلك؟

– ليس تمامًا يا «سارة». أنت فتاة جادة ولا أنظر إلى عمق عواطفك بسطحية كما تعتقدين. إذن، كل شيء بدا واضحًا. نظرت إليه نظرة تساؤل فقال:

– أفهم الآن لماذا لا يهمك الرجال كثيرًا. هل يعرف «كولن» أن لا حظ له معك؟

– أنا متأكدة أنه يعرف. لكنه لا يعرف حقيقة عواطفي تجاه «كارلوس».

– أتساءل لماذا لم أفطن لشيء.

– رفضت أن أظهر لك حقيقة أمري، غير أنني لم أكن أتألم ولم أكن تعيسة.

– لكنك لم تعرفي السعادة أيضًا... كما يجب...

– ما هي السعادة الكاملة؟ كيف يمكن تحديدها؟ كنت مكتفية بالعمل

لديك. وإذا رفض «كارلوس» حبي له، أعتقد أن حياتي ستستمر كما كانت.

– كلا يا بنتي... توقف ونظر إليها بشفقة وقال:

– لا يمكنك أن تنسيه مدى الحياة. هذا مستحيل الآن. لقد لاحظت أنكما قريبان من بعضكما. من جهته فهو يشعر على الأقل... بالعطف تجاهك. أنت تحبينه. وإذا كنت ستكونين تعيسة، سأندم كل حياتي على اتخاذ القرار بتأليف كتاب عن «قبرص». كانت إحدى الدعوات آتية من «لينوس». دعوة إلى حفل عشاء في فيلّته بـ«آيوس يورغوس». ولهذه المناسبة اختارت «سارة» ثوبًا أسود اللون بسيطًا، ذا قبة عالية وأكمام واسعة. كما وضعت على صدره مشبكًا من اللؤلؤ يتناسق مع زوجي الأقراط المتدليين من أذنيها، إحدى هدايا «جيلبير» بمناسبة عيد ميلادها. نظر «لينوس» بإعجاب إلى «سارة» عندما وصلت مع «جيلبير». أما «كارلوس» فقد أوقفه أحد أصدقائه عندما كان يوقف سيارته أمام المنزل. همس «لينوس» بلهجة مرتجفة:

– يا عزيزتي، أنت رائعة. ابتسم «جيلبير» وأجاب بدلاً من «سارة» قائلاً:

– بالفعل، لقد قلت لها ذلك منذ لحظات. أمسك «لينوس» يد «سارة» وتوجها معًا إلى الشرفة حيث كان بعض المدعوين يثرثرون ويشربون تحت ضوء القمر. قدم «لينوس» المشروب إلى مدعويه وجلس بين «سارة» و«جيلبير». كانت الفتاة تبحث عن «كارلوس» بعينيها. أين سيجلس، يا ترى؟ سيضطر إلى الجلوس بعيدًا عنهما؛ لأن الكراسي

الثلاثة الباقية التي تحيط بالطاولة يجلس عليها رجلان وامرأة. نظرت إلى «جيلبير» وقالت:

– سيصل «كارلوس» في أية لحظة الآن. هل بإمكاننا أن نقرب الكراسي قليلا لنتمكن من وضع كرسي آخر له قربنا؟ فهم «جيلبير» واقترب في الحال كي يصير بإمكان «كارلوس» أن يجلس قرب «سارة». وعندما وصل رفعت عينيها نحوه مبتسمة وأشارت إلى الكرسي الفارغ، وقالت:

– تعال واجلس بقربي، يا «كارلوس». وبعد فترة غير طويلة جلست «سارة» و«كارلوس» في الشرفة واستندا إلى الدرابزين، يثرثران ويتأملان الشاطئ الفارغ والأمواج الخفيفة تحت ضوء القمر. ورائحة الجو تعبق بالأزهار العطرة. همست «سارة» وهي تلتفت إلى «كارلوس»:

– إنه منظر ساحر. حبي لهذه الجزيرة لا يوصف! ران صمت متوتر ثم قال «كارلوس» بصوت مبحوح:

– تفكرين الآن في الوقت الذي ستغادرين فيه الجزيرة... هزت رأسها متحاشية نظره الثاقب:

– مضى على وجودنا هنا شهران فقط. تبع ذلك صمت عميق. وهي غير قادرة على تحمل التوتر الضاغط فاقترحت «سارة» عليه أن يلتحقا ببقية المدعوين. قَبِلَ لكنه لم يتحرك. فاضطرت إلى أن تقف أمامه.

– «سارة»... وبحركة سريعة أمسكها «كارلوس» من طرف فستانها وأبعدها بسرعة عن الدرابزين وقال:

– يا إلهي... فيما كان «لينوس» يفكر إذن! هذا خطر كبير! كانت «سارة» شاحبة الوجه. فقد شعرت بالدرابزين كأنه ينهدم وينهار تحت

ثقلها عندما استندت إليه بكل قواها. لكن، عندما رأت «كارلوس» أمامها يسد عليها طريق الدخول إلى المنزل، راح قلبها يخفق بقوة فألقت نظرة سريعة تحتها... حيث كادت تقع على الصخور. وقالت بصوت متقطع ومنفعل:

– شكرًا يا«كارلوس». لقد سبق أن قال لي... «لينوس»، أن عليه وضع درابزين جديد.

– لكن هذا العمل كان سيئًا للغاية، كما ترين! أفلت يده عن فستانها، لكن يده الساخنة ظلت على ذراع «سارة»... وقبل أن تفهم ماذا جرى وجدت نفسها بين ذراعيه. فجذبها نحوه وعانقها قائلا بعد لحظة صغيرة:

– «سارة»... يا«سارتي» الناعمة... كان يمسكها بطرف ذراعها ويحدق نظره الحنون والدافئ إلى عينيها. ثم أضاف ببساطة:

– أحبك. أطلقت زفرة كبيرة آتية من أعماق قلبها وانضمت إليه من جديد. وعانقته وهمست وعيناها تلمعان وقلبها ينبض بالامتنان لهذه الفترة السعيدة التي تعيشها:

– أحبك يا«كارلوس». خفت كثيرًا. تجهم وجه «كارلوس» قليلا وسأل:

– مم خفت؟ أجابت بصوت خجول:

– خفت ألا تحبني. أنا... أحبك منذ وقت طويل. لم يسألها منذ متى تحبه. كان يعتقد أنها وقعت في حبه بعد لقائهما الجديد. ستوضح له هذا الموضوع في وقت لاحق. قال لها بلهجة غريبة:

– يا حبي، لا يجب أن تشكّي في الأمر بعد الآن. كل شيء سيكون على ما يرام. أنا واثق بذلك. وقبل أن تتمكن «سارة» من الكلام كان «كارلوس» قد ابتعد عنها بعدما سمع أصواتًا وضجيجًا تقترب منهما. وصل «لينوس» إلى الشرفة يرافقه رجل قبرصي يوناني. في الحال قام «كارلوس» بلفت انتباه «لينوس» إلى الدرابزين فصرخ بارتباك:

– يا إلهي! ماذا جرى؟

– كادت «سارة» أن تقع على الصخور. فالتقطتُها في الوقت المناسب. قال لـ«سارة»:

– إنني متأسف للغاية لما حدث. اعتذر ووعد بأن البنّاء سينال جزاءه على تقصيره هذا. ثم أضاف:

– يجب دائمًا مراقبة أعمال العمال! طلب الرجل القبرصي من «كارلوس» إذا كان بإمكانه أن يسمح له بالتحدث إليه لحظات قصيرة. ثم شرح لـ«سارة» قائلا:

– هناك أمور مهنية أريد أن أستشير «كارلوس» فيها. إذا كان هذا لا يزعجك... أجابت مبتسمة:

– أبدًا. ثم قالت لـ«كارلوس»:

– سأكون في الداخل.

– حسنًا لن أمكث طويلا. هبط «كارلوس» السلالم مع الرجل حتى الحديقة وران الصمت بعد غيابهما. أخيرًا تكلم «لينوس» قائلا بلهجة قاسية:

– كنت أعتقد أن «كارلوس» أخوك؟

– إنه أخي بالتبني. لقد سبق أن قلت لك ذلك.

– إذن لستما قريبين فعلا. خفض «لينوس» عينيه نحو وجه الفتاة المتقع لونه وتمكن من قراءة عينيها الرماديتين. فلمحت نظرته القاسية. تردد لحظة قبل أن يتابع:

– لقد رأيتك تعانقينه. هل سبق أن التقيت بالمرأة التي سكنت عندها «ريّان» خلال أسبوع كامل في «نيقوسيا»؟ انتفض قلب «سارة» وأجابت بصوت أجش:

– كلا... أعرف أنها موظفة في مكتب «كارلوس» في «نيقوسيا». كان... زوجها يعمل عند «كارلوس» قبل أن يموت... انطفأ صوتها عندما لمحت تعبير وجه «لينوس» وأضافت بلهجة عنيفة:

– هذا ما أخبرني «كارلوس» به.

– هذا صحيح. «كارلوس» غير قادر على الكذب. لكنه لم يقل لك كل شيء. الرجل المتوفى كان مدير المعمل الذي يملكه «كارلوس». توفي منذ سنة تاركًا زوجة رائعة الجمال تدعى «أنولا» وابنًا عمره خمس سنوات. فاقترح «كارلوس» حينذاك على «أنولا» أن تعمل كسكرتيرة في المعمل... قاطعته بلهجة عصبية وقالت:

– أخبرني «كارلوس» بكل هذا.

– أشك في الأمر. تلألأت عينا «لينوس» فجأة واتضح لها أنه يغار كالمجنون. تابع يقول ببطء ليزيد من تعذيبها:

– لكنه لم يقل لك يا عزيزتي، إنه خطيبها...

– خطيبها! لا أصدقك! أكمل «لينوس» كأنها لم تقاطعه:

– عندنا، الخطبة هي اتحاد قوي كالزواج. لا أحد يكسر الخطبة. وإذا فعل «كارلوس» هذا الشيء، سيلطخ سمعته بالعار إلى الأبد.

- 9 -

«سارة» و«ريّان» تلعبان في الحديقة. و«كولن» جالس على كرسي طويل يراقبهما بابتسامة مرحة. وفي الشرفة يقرأ «جيلبير» ما دونته «سارة» خلال إقامتهما في «فاماغوستا» من انطباعاتها الشخصية. ثم يعلن بفرح أن ما كتبته يستحق استخدامه في كتابه. كان اليوم نهار السبت وأتت «سارة» بـ«ريّان» في الصباح الباكر. فتناولت الفتاة الصغيرة الغداء في الفيلا بينما وعد «كارلوس» بالأمس هاتفيًا أنه سيسر للتعرف إلى «كولن» الذي وصل لتوه.

رفع الكاتب عينيه عن الأوراق لينظر إلى «ريّان» التي تضحك بفرح وهي تلهو مع «سارة». كانت الفتاة تركض في كل الجهات لتتخلص من أيدي عمتها. ضمت «سارة» الفتاة بين ذراعيها وقالت:

– آه! لقد التقطك! فنظرت «ريان» إليها بعينيها الخضراوين المليئتين حبًا وقالت:

– أنت تعرفين جيدًا سرعتي، يا عمتي «سارة»، لكنك تضيعين الوقت قبل أن تلتقطيني. مسحت «ريّان» العرق المتصبب على جبينها وأضافت:

– آه! كم الطقس حار!

– إذن لنسترح الآن ونأخذ بعض المشروبات المنعشة. يدًا بيد توجهتا صوب «كولن». لكن «ريّان» أسرعت نحو «جيلبير» وجلست على ركبته. وبقيت «سارة» و«كولن» وحدهما. قال «كولن» بصوت جاف:

– ما هذا التغيير المفاجئ الذي طرأ عليك! أين تلك الفتاة الباردة التي عرفتها منذ زمن؟ ضحكت بينما كان قلبها محطمًا بخيبة الأمل وقالت:

– هذا تأثير الجزيرة. هنا، الجميع لا يشعرون بثقل الهموم. أغمضت عينيها تتألم على نفسها وعلى «كارلوس» أيضًا. نظر «كولن» إلى «ريّان» التي تمسك بعنق «جيلبير» وقال بلهجة تحدٍّ:

– هل تتذكرين ما كنت تقولينه لي عن الأولاد والحياة العائلية؟ تنهدت ثم جلست على العشب رافعة ركبتيها حتى عنقها. عيناها مبللتان وفمها الجميل يرتجف. نظر إليها «كولن» بدهشة وقلق وسألها:

– هل هناك شيء يقلقك يا«سارة»؟ هزت رأسها دون جواب. كانت تحتاج بشدة إلى أن تتحدث إلى أحد ما. كان يجب عليها أن تفشي بسرها لـ«جيلبير»، لكنه منغمس في الكتابة إلى درجة كبيرة ولا تريد إزعاجه. فهي تعرف أنه سيقلق عليها كثيرًا، وبالتالي لن يكون قادرًا على التركيز في عمله المبدع. فجأة نهضت واقفة وقالت:

– لنتنزه قليلا وسأخبرك بكل شيء. نظرت إلى «جيلبير» وإلى الفتاة في حضنه وسألته:

– هل بإمكان «ريّان» أن تبقى معك مدة عشر دقائق؟ هز رأسه إيجابًا. وقبل أن يغادرا الحديقة، سألها «كولن»:

– «سارة»، ماذا يجري؟ تبدين مضطربة كليًا، خاصة عندما جلست على العشب. فكرت برهة قبل أن تجيب:

– لقد أخبرتك مرة بـ«كارلوس». هل مازلت تتذكر يا «كولن»؟

– كيف أنسى ذلك؟

– لقد جعلتك تعتقد أنه بالنسبة إليّ أخ لا غير. ران صمت طويل. رمقها «كولن» بنظرة سريعة وهما يتوجهان نحو الباب الحديدي، ثم قال:

– نعم، هذا صحيح. آليًا، مدا يديهما معًا ليفتحا الباب ولمست يده يدها. فضغط «كولن» على يدها بشدة فشعرت «سارة» بارتياح وقالت:

– لم أقل لك الحقيقة. لقد وقعت في غرام «كارلوس» منذ أن كنت في سن السادسة عشرة. ردد وهو يتذكر الحديث الذي تناولاه في «إنجلترا» ليلة الاحتفال بعيد زواج جدّيه الذهبي:

– ست عشرة سنة؟! أي عندما تزوج هو، أليس كذلك؟ هزت رأسها موافقة وقالت:

– عرفت أنني أحبه يوم عرفني فيه إلى «أليسون». لقد كتبت لك في رسالتي أنها توفيت.

– وأخبرتني بأن «كارلوس» قد رضي عنك. لكنك لم تخبريني بحبك له.

– لم أكن لأعرف حينذاك أنه يحبني. قال بصوت مندهش:

– هل يحبك؟ لا شك في أنه كان يعتقد أنها تعسة لأن «كارلوس»

رفض حبها فقالت:

– نعم يا «كولن». إنه يحبني.

– في هذه الحال، أين تقع المشكلة؟ فتح لها الباب الحديدي ودعاها للخروج أمامه.

– لقد عقد خطبته على امرأة أخرى؟

– خطبة؟ هل خطيبته امرأة قبرصية؟

– نعم. لا أعرف إذا كنت تعلم أن الخطبة هنا في «قبرص» هي بمثابة الزواج. وتتم الخطبة في الكنيسة حيث يتبادل الخطيبان خاتم الخطبة. لا أحد هنا يكسر الخطبة. قطب «كولن» حاجبيه وقال:

– لا أفهم جيدًا. إذا كان «كارلوس» خاطبًا، فكيف وقع في حبك وفتح لك قلبه وصرح لك بحقيقة عواطفه؟

– كان يناضل ضد هذا الحب. لكن جاء يوم وقرر أن يتخذ قرارًا. أعرف الآن أنه مستعد لأن يصرح لـ «أنولا» أنه غير قادر على الزواج بها. لا يوجد أي حب بينهما. غير أن «أنولا» امرأة وحيدة وأم لصبي صغير. وكان «كارلوس» يعاني الوضع نفسه. فصمما على الزواج لمصلحة الطفلين. ولا شك في أن «كارلوس» فكر في أن الزواج يؤمن الاستقرار لـ «ريّان».

– هل قال لها إنه لن يتزوجها؟ لم ترد عليه في الحال. أخيرًا قالت:

– ذهب خصيصًا إلى «نيقوسيا» ليحدثها في هذا الموضوع. عادة لا يذهب إلى العاصمة بصورة مستمرة على الرغم من وجود مكاتب عمله

هناك. إذن، ذهب «كارلوس» ليراها، لكن لم تكن ردة فعلها كما كان يأمله...

– كان يتصور أنها ستفك العقد وبالتالي سيكون قادرًا على الزواج بك.

– ليس هذا بالضبط. في الواقع قالت له «أنولا»، عندما عقدا خطبتهما، إذا وقع أحدهما في حب إنسان آخر قبل الزواج فبإمكانهما فك العقد، فقبل «كارلوس» هذا العرض، لكنه لم يتصور أن ذلك سيحصل له؛ لأنه لم يكن ميالاً إلى النساء. لكنه عندما عرف أنه يحبني، حاول مجابهة عواطفه. وقرر أخيرًا أن يلغي العقد. لكن «أنولا»، عندما علمت بالأمر راحت تبكي وتولول وقالت له إنها مصرة على الزواج به. بالنسبة إليه، أصبحت المسألة تتعلق بالشرف. وهو الآن مضطر إلى أن يخضع لإرادة خطيبته.

– عليه إذن أن يتزوج بامرأة لا يحبها؟

– أعتقد... أنه سيتزوجها.

– لكن، أنت...؟ هبطا ببطء داخل الممر الذي تحده أشجار الحمضيات، فالبيوت البيضاء ساخنة تحت أشعة شمس الظهيرة. حدائقها مليئة بجميع أنواع الأزهار والبقول. هنا وهناك شجرة نخيل تتأرجح في بطء تحت السماء الزرقاء، بفعل نسيم ناعم آت من البحر. قالت «سارة»:

– ربما تتساءل عما إذا كنت سأتصرف مع «كارلوس» كعشيقة له؟ أجاب بلهجة حنون:

– لا يمكنني أن أصدق أن مثل هذا الشيء يصدر عنك. امتلأت عيناها دموعًا وقالت:

– ولا أنا. لكن الآن...

– أنت إذن تتألمين كثيرًا؟

– لا يمكنني أن أعيش دونه. سأقاوم لوقت ما، لكنني أخاف أن أستسلم له يومًا ما. ظلا يمشيان بصمت، ثم سألها «كولن» إذا كان بإمكانه أن يطرح عليها سؤالا حميمًا. فهزت رأسها.

– هل أقترح عليك «كارلوس» أن تقيمي معه علاقة عاطفية؟

– كلا... لكن زواجه سيكون زواجًا أبيض، لا غير.

– هل قال لك «كارلوس» هذا الكلام؟

– نعم، منذ وقت قصير. كان يأمل دائمًا أن يصل إلى تدابير معينة ترضي «أنولا» وتقنعها بقبول الانفصال. لذلك السبب لم يقل لي هذا الكلام قبل ذلك. شاب قبرصي يدعى «لينوس» وقع في غرامي لكنني رفضت الزواج به. ولهذا السبب أخبرني بخطبة «كارلوس» و«أنولا» للانتقام طبعًا. إذ شاهد «كارلوس» يقبلني، فتصرف بدافع الغيرة.

– هل قال لك «كارلوس» إن زواجه من «أنولا» سيكون زواجًا أبيض؟

– نعم، لكن بطريقة غير مباشرة. لم تكن «أنولا» تريد أن يكون زواجهما زواجًا حقيقيًا ما داما لا يحبان بعضهما. فلقد أحبت زوجها الأول. كما تجد أن العلاقة الجنسية مع شخصين لا يحبان بعضهما هي علاقة غير أخلاقية حتى ولو كان الشخصان متزوجين...

– هل تعتقدين أن «كارلوس» سيعيش حياة الناسك طيلة عمره؟

– أنا متأكدة أنه كان على استعداد لتقبل هذا النمط من الحياة، لو لم نلتق من جديد.

– هل تعرفت إلى «أنولا»؟ كيف هي؟ ما عمرها؟

– عمرها أربع وعشرون أوخمس وعشرون سنة، على ما أظن. إنها جميلة جدًا ولطيفة وناعمة للغاية. ردد «كولن» مندهشًا:

– وناعمة جدًا؟ كنت أتصورها امرأة متملكة وشرسة.

– لا أبدًا. وهذا ما يجعل الوضع ميؤوسًا منه. لنفترض أنني تورطت في علاقة مع «كارلوس»، لا يمكنني القول بأنها تستحق ذلك سأظل نادمة على ما فعلت.

– إذن لن تقومي بعلاقة عاطفية معه؟ هل تعتقدين أن «كارلوس» يتقبل الوضع؟ أفهمت «كولن» أن التجربة ربما تكون أقوى منه. فقال «كولن» في الحال:

– حسبما أخبرتني بـ«كارلوس»، أنا متأكد أنه لن يتخذ منك عشيقة. راحت «سارة» تتخيل المشهد المحفور في ذاكرتها. فقد أفصحت لـ«كارلوس» أنها على علم بخطبته. وبعد أن شرح لها كل شيء ضمها بين ذراعيه بحنان. كانا وحيدين في منزل «كارلوس»، في الصالون الجميل الذي يطل على الجبال. هذا الشعور الحميم جعلهما متوترين، إلى درجة أنهما كادا أن يستسلما للعاطفة العميقة التي تجذبهما. لكن أخيرًا، اخترقا الوضع مدركين أنهما وصلا إلى الهوة الحاسمة... حاسمة لأنه من المستحيل، بعد ما حدث، أن يعودا إلى الوراء.

بعد ذلك اليوم التقيا مرات عديدة وسمحت لهما الظروف للاختلاء

قليلا، فكانا يتعانقان ويهمسان بالكلمات الناعمة، لكن إشارات الحنان هذه لم تجرفهما إلى نقطة اللاعودة. واعترفت «سارة» في أعماقها أن رباطة جأش «كارلوس» وحدها هي التي نجتهما من الوقوع في الخطر. عادت إلى الواقع وهي تسمع «كولن» يقول لها:

– لا أفهم كيف لم تسمعي بخطبته من قبل. حسب رسائلك فهمت أن الناس في القرى يعرفون كل ما يدور من أمور ومشاكل الغير.

– طبعًا. نعم. لكن «أنولا» تعيش في قرية بعيدة عن منطقة «بافوس». وهناك تمت الخطبة. وكانت مصرة على المحافظة على سرية هذا الاحتفال. حسبما فهمت، إنها امرأة خجول تعيش حياة منعزلة.

– فهمت. لكن «لينوس» كان على علم بذلك...

– هذا ما فاجأ «كارلوس». قال لي لو أنه كان يتوقع ذلك من «لينوس» لما تركني وحدي معه. لكنه كان يشعر بأن «لينوس» يشك في علاقتنا الأخوية، وأنه لربما عرف أننا نحب بعضنا، وغيرته هذه فضحت الأمر. ومن جهة أخرى، فقد جُرح في عزة نفسه عندما رفضت الزواج به. كان «كارلوس» ينوي إخباري بكل شيء، لكنه كان يريد، في بادئ الأمر، محاولة إقناع «أنولا» مرة أخرى، بالتراجع عن عنادها وتصلبها. توقفت ثم تذكرت كلمات «كارلوس» التي بدت لها حينذاك غريبة وذلك عندما قال لها:

– كل شيء سيكون على ما يرام، أنا متأكد من ذلك. قطع «كولن» حبل أفكارها قائلاً:

– هل يعرف «كارلوس» كيف اكتشف «لينوس» خطبته؟

– لا أعتقد ذلك. فكر «كارلوس» مطولا في الأمر لكنه لم يجد سوى حل واحد ممكن، حتى ولو قبله على مضض إذ يعتقد أن «لينوس» ربما قرأ رسالة أو جزءًا منها أرسلتها «أنولا» إلى «كارلوس»؛ لأنه في إحدى الأمسيات كان «لينوس» مدعوًّا عندَ «كارلوس»، وعلى الطاولة كانت رسالة «أنولا»، ابتعد «كارلوس» ليجلب المشروب. وهنا لا شك في أن «لينوس» قرأ الرسالة في غيابه. وكان الإمضاء: «خطيبتك، «أنولا».

قررا العودة إلى الفيلا. وبعدما توقفا أمام منزل المختار ليتبادلا الحديث العادي، دعاهما المختار إلى مشاركته في الغداء الذي كان يحب أن يأخذه في الحديقة. لكنهما اعتذرا إليه وأكملا الطريق حتى وصلا إلى الفيلا. سأل «كولن» وهما يدخلان الحديقة ليلتحقا بـ«جيلبير» و«ريّان»:

– هل يعرف «جيلبير» بالأمر؟

– لم أقل له شيئًا، كي لا أعرقل عمله. أنت تعرف كم هو قلق عليَّ.

أجاب «كولن» دون عداوة أو ألم:

– لكنه لم يقلق عليَّ أبدًا.

– صرح لي أنه إذا كان «كارلوس» لا يحبني كما أنا أحبه، فسيندم طيلة حياته لأنه جاء إلى «قبرص» ليؤلف كتابًا.

– إنه إذن يعلم حقيقة مشاعرك تجاه «كارلوس»؟

– نعم، هذا كل ما صرحت به حتى الآن.

– أليس هو فضوليًّا لمعرفة تطور الوضع؟

– إنه منغمس في أعماله إلى درجة أنه لا يفكر في شيء آخر. لا شك

في أنه ينتظر مني أن أعلمه بتطورات الأمور متى حان الوقت وسمحت الظروف. صحيح أنه يهتم بي جدًا، لكنه لن يطرح عليَّ أسئلة خاصة إلا إذا كنت البادئة في تناول الموضوع.

– لكن، سينتهي بي الأمر إلى أن يتساءل ماذا يجري؟

– فيما إذا كان «كارلوس» يحبني أيضًا؟ هزت رأسها وأضافت:

– آمل أن أظل قادرة على السكوت حتى يكون قد حقق جزءًا كبيرًا من كتابه. حينئذ سأقول له الحقيقة. حتى ولو كنت سأسبب له بعض الألم.

– هذا أمر حتمي، فكما قلت، سيندم لأنه اصطحبك معه إلى «قبرص».

وصل «كارلوس» في المساء متأخرًا، لأنه كان منهمكًا في الرد على الهاتف. ابتسم بحنان إلى «سارة» وحدق إليها طويلاً قبل أن ينظر إلى «جيلبير» الذي وقف ليقدم له ابن أخيه «كولن». تصافح الرجلان باليد. وكان لون «كولن» أشقر فاتحًا بينما كان لون «كارلوس» أسمر غامقًا. التناقض كان واضحًا لكن الاثنين كانا وسيمين وجذابين... كل واحد حسب طريقته الخاصة. أعجبا ببعضهما منذ الجلسة الأولى وفرحت «سارة» لهذا الأمر لأنها كانت تخشى أن «كارلوس» يغار من «كولن». وهو يعرف أنه كان صديقها منذ خمس سنوات. وعندما أخبرته بـ«كولن» وأعلمته بمجيئه أبدى قلقه بقوله:

– تعرفينه منذ خمس سنوات! وهو رجل حر. أجابت ببساطة:

– إنني أحبك يا«كارلوس» ولن يكون هناك أبدًا رجل آخر في حياتي.

أجابها «كارلوس» وبريق قاتم في عينيه الخضراوين:

– تحبينني منذ زمن بعيد... منذ سن المراهقة... لقد أخبرته «سارة» بهذا التفصيل يوم كانا يخبران بعضهما بالأسرار الصغيرة في حياتهما الماضية هتف حينذاك:

– حبيبتي، ماذا سيحل بنا؟ أخذت رأسه بين ذراعيها كأنها تؤرجحه وأجابت:

– ربما غيرت «أنولا» رأيها. ثم رددت بصوت شغوف:

– نعم، ستغير رأيها يا«كارلوس». شعرت بأنه على وشك البكاء لشدة تأله غير أنه اكتفى بإطلاق زفرة عميقة فوق صدرها وقال بلهجة خائبة:

– لن تغير رأيها أبدًا. إنها وحيدة وتخاف من المستقبل. وأنا أتفهم وضعها، إنها لا تهتم بنفسها مثلك يا «سارة». فهي غير قادرة على أن تعيش دون أن تستند إلى رجل في حياتها. إنه الخوف وليس غريزة التملك الذي يمنعها من فك خطبتنا. أضاف «كارلوس» أن «أنولا» امرأة قبرصية خجولة ولا يمكن لـ«سارة» إلا أن تحبها متى تعرفت إليها. وتلبية لأمنية «سارة»، اصطحبها «كارلوس» في اليوم التالي لزيارة خطيبته في «نيقوسيا». فلاحظت «سارة» أن «أنولا» بدأت ترتجف عندما قدم لها «سارة» المرأة التي يحبها. كان الوضع غريبًا، لكن لم تنشب بين المرأتين أية عدائية، أو اصطدام.

بعد هذه الزيارة. شعرت «سارة» بتفاؤل، وفهمت أن الزواج لن يتأخر موعده. لكنها غير متأكدة إذا كان «كارلوس» سيوافق على الزواج بها بهذه السرعة. غير أن «سارة» كانت متأكدة بشكل تام أنه لن

يتخلى عن خطيبته. عندما قرر الزواج بـ«أنولا» كان مقتنعًا بأنه الحل الأفضل لإنجاب أولاد، وكان متأكدًا أنه لن يقع في حبها أو حب أية امرأة أخرى. أما إذا كانت «أنولا» تريد أن تتزوج برجل آخر، لقبل «كارلوس» إلغاء العقد. وفي كل الأحوال سيتم الزواج، لأنه في «قبرص» لم يسمع أحد بفك أية خطبة إلا بعد اتفاق مشترك بين الخطيبين.

جاءت «ريّان» وقطعت حبل أفكار «سارة» وسألتها عما إذا كانت تحب أن تلعب معها في الحديقة بعد الظهيرة. سألتها «سارة»:

– ألا ترهقين نفسك بالركض المستمر، دون توقف؟ وتذكرت «سارة» الفتاة العاقلة الجامدة التي كانت تخاف أن توسخ فستانها. أما الآن فأصبحت «ريّان» عفريتة كالصبيان. وتذكرت كم بذلت من جهد لتقنع «كارلوس» بأن «ريّان» تحتاج إلى أن تتصرف كابنة في نفس عمرها. «كارلوس» يخشى أن تشعر ابنته بأنها مهملة ولا يحبها أحد، فيما إذا تركها توسخ ملابسها أو تشعث شعرها.

لكن «سارة» بذلت جهدًا أيضًا في الاهتمام بالفتاة. فراحت تلعب معها في أية مناسبة وتقص عليها الحكايات... فتفتّحت الفتاة وراحت تعبر بكل حرية عن شعورها وخاصة عن عاطفتها القوية لعمتها. ومن جهة ثانية بدأت «ريان» تحب والدها أكثر، لأنه أصبح متفرغًا أكثر وتراه معظم الأحيان، وذلك بسبب عمتها «سارة». أجابت «ريان»:

– أشعر بالتعب أحيانًا. قال لي والدي أمس إني أرهق نفسي ولا شك في أني أتعب أحيانًا حتى الموت، لكنني رفضت أن أفصح له بالأمر.

ثم راحت الفتاة تلعب بالكرة مع «كارلوس» و«كولن» لوقت طويل، مما

جعل «جيلبير» يقول لـ«سارة»:

– يا لها من فتاة لطيفة! لقد قمت بعمل بنّاء معها، يا«سارة». ابتسمت له وشعرت بدفء في أعماق قلبها. إنها محظوظة بهذا الصديق الحميم، فهي تعرف أنها ستغادر «كارلوس» يومًا ما، وسيظل «جيلبير» صديقها في أيام الوحدة التي تنتظرها. أجابت:

– لم يكن الأمر صعبًا للغاية. فما إن بدأت «ريّان» بالتحرر حتى أصبح التغير جليًا. هز «جيلبير» رأسه ونظر إلى «ريّان» وهي تلعب مع الرجلين ثم قال:

– الأولاد يتكيفون بسرعة في هذا العمر. يريدون استمالة إعجاب الغير إليهم. غير أن «ريّان» لم تحاول استمالة لطف والدها في هذا الوقت بالذات. فما إن انتهى اللعب والمرح حتى راحت تناقشه بجدية حول الوقت الذي ستذهب فيه إلى فراشها. قال «كارلوس» في لهجة قاسية:

– حان الوقت لأن نعود إلى المنزل.

– أنا ما زلت أحتاج إلى عشر دقائق...

– لا تنسي أنك تحتاجين إلى نصف ساعة عل الأقل كي تصيري جاهزة للنوم. صرخت «ريّان» قائلة:

– عمي «جيلبير»، هل بإمكانك أن تطلب من والدي أن يبقى قليلا؟

الجميع قهقهوا من الضحك. نظرت «ريّان» إلى «جيلبير» نظرة واثقة وتلألأت عيناها فرحًا عندما قال لـ«كارلوس»:

– لا أريد أن أتدخل بينك وبينها، لكن بإمكانك أن تدعها تنام هنا.

وما رأيك أن تبقى للعشاء معنا؟ نظر «كارلوس» إلى «سارة» في الحال ورأى في عينيها إلحاحًا بالقبول. فوافق على عرض الكاتب في الحال وأضافت «ريّان» بحماس:

– وبإمكاني أن أنام دون قميص نوم. غالبًا ما أنام دونه عندما يكون الطقس حارًّا كاليوم. نظر «كارلوس» إلى ملابس ابنته، لكن «جيلبير» قاطعه قائلا:

– آه! دون تملق وحركات. لنبقَ كما نحن. ما رأيكم جميعًا لو نتناول كأسًا في الدار؟

– وهل بإمكاني أن آخذ كأسًا معكم؟

– كلا يا«ريّان». هذا غير وارد. بإمكانك أن تبقي نصف ساعة معنا، لكن بعد ذلك، عليك أن تذهبي إلى فراشك. وإذا كنت تريدين مناقشة هذا المشروع، أعيدك فورًا إلى البيت. وبطبيعة الحال، فضلت الفتاة السكوت. وبعد نصف ساعة، أعطتها «سارة» حمامًا فاترًا ودخل «كارلوس» إلى الغرفة عندما كانت «سارة» تضع «ريّان» في فراشها استعدادًا للنوم، فتمنى لابنته ليلة سعيدة؛ كي يتمكن من البقاء بضع دقائق وحده مع «سارة» بعدما أقفل باب الغرفة. همس بصوت حزين:

– حبيبتي، أحبك كثيرًا. لماذا لم تأتي إليّ منذ زمن؟

– لو كنت أعرف...! لم تضف شيئًا واستسلمت لعناقه. كانت تضمه إليها بحنان لتجعله يشعر إلى أية درجة تحتاج إليه. وفكرت بمرارة في أن كل هذا العذاب لا يجدي شيئًا. لو كان «كارلوس» إنجليزيًّا أو

أمريكيًّا، لكان بإمكانه فك عقد الخطبة دون أن يشعر بالعار. أخيرًا قالت:

– حبيبي، يجب أن نلتحق بالآخرين. سيتساءلون لماذا تأخرنا. هز رأسه وابتعد عنها قليلا ليحدق إليها بعمق وحرارة وقال:

– لو احترمت «أنولا» وعدها، لتغير الأمر كليًّا. لكنها تخاف من الوحدة. وهذه هي حال جميع القبارصة. يدًا بيد مشيا في الممشى ولم يفترقا إلا في اللحظة الأخيرة قبل مواجهة الحضور. «جيلبير» و «كولن» يثرثران في الصالون. أخبره الكاتب بأنه سيكون من بين المدعوين، في جميع الظروف ولا مجال له للتهرب. لكن «كولن» أجاب أنه يفضل أن يرتاح قليلا. ثم سأل «سارة» عندما جلست على الأريكة قرب «كارلوس»:

– وأنت يا «سارة»، هل تتحملين الوضع؟

– أنا و«جيلبير»، نتنفس قليلا عندما نذهب إلى خارج «لابيتوس». نعمل كثيرًا وفي المساء نستريح. هكذا لانرهق أنفسنا كليًّا. انطفأ صوتها فجأة. من الباب الزجاجي المفتوح نظرت إلى الشرفة باندهاش. هناك رؤوس كثيرة حجبت نظرها. أطلق «كارلوس» صرخة بتعجب واستغراب وخرج بخطى سريعة. لمحته «أنولا» وارتمت بين ذراعيه. وسمع الجميع من الداخل بكاءها وصراخها الجنوني.

– «نيكولا» لطمته سيارة... حاولت الاتصال بك، فقيل لي إنك غير موجود. لم أصدق. ذهبت إلى المنزل فقيل لي إنك هنا... «كارلوس»، تعال معي إلى المستشفى. لا يريدون أن يدعوني أرى ابني... أخاف

أن يكون قد مات. تأبط ذراع «أنولا» وآنسها بكلمات لطيفة. ففوجئ «جيلبير» بالأمر، بينما نظر «كولن» إلى «سارة» مستغربًا. سأل «جيلبير» «سارة»:

– ماذا يعني كل هذا؟ من هي هذه المرأة؟ أجابت بصوت مرتجف:

– تدعى «أنولا»... إنها... إنها خطيبة «كارلوس»... توقفت لحظة ثم أضافت:

– كانا مخطوبين قبل أن نأتي إلى «قبرص».

- 10 -

يا بنتي الحبيبة، أنا أعرف جيدًا بماذا تشعرين. وأعرف أيضًا أن البكاء يخفف العذاب عند النساء. هذا ما كانت تقوله لي زوجتي دائمًا. هذا المشهد حدث في صباح اليوم التالي، عندما اقترح «جيلبير» على «سارة» أن تدخل معه إلى مكتبه، حيث بإمكانهما التحدث معًا على حدة. اتقدت حنجرة الفتاة وهي تقول:

– أنت لطيف جدًا يا«جيلبير». صحيح، ربما البكاء يشعرني بتحسن. راحت تتذكر حادثة الأمس: طلب منها «كارلوس» أن تبقى مع «أنولا» ليذهب بالسيارة مع «جيلبير». ثم أخذ المرأة إلى «نيقوسيا». واكتشف أن العاملين في المستشفى أبعدوا «أنولا» عن ابنها؛ لأن الصبي كان في غرفة العمليات لتجرى له عملية جراحية غير خطرة. وعد الأطباء بإخراج الولد من المستشفى بعد أسبوع تقريبًا. رفضت «أنولا» أن

تبقى وحدها فأعادها «جيلبير» إلى الفيلا. سأل «كارلوس» «جيلبير» معتذرًا:

– هل بإمكانك أن تسمح لها بالبقاء هنا؟ لا أريد أن أستضيفها عندي لأن لا أحد يعرف أننا مخطوبان، ولا أحب سماع الإشاعات والأقاويل.

– طبعًا. ستبقى هنا بكل طيب خاطر. غير أن «سارة» لاحظت أن «جيلبير» قبل طلب «كارلوس» على مضض، لأنه لا خيار له. قال «جيلبير» لـ«سارة» بعد مضي وقت على الحادثة:

– صحة «أنولا» هي قبل أي شيء آخر. إنها على وشك أن تصاب بانهيار عصبي. كان «كولن» موجودًا معهما، فلاحظت «سارة» أنه حزين فسألته:

– هل هناك شيء يزعجك يا«كولن»؟ فوجئ بالسؤال... لم يكن يلاحظ أن تعابير وجهه قد تغيرت إلى هذه الدرجة. قاطع «جيلبير» حبل أفكار «سارة» وقال:

– لن أعمل اليوم. إذا كنت تريدين أن آخذك إلى مكان ما بعيدًا عن المنزل، فلا تترددي في أن تسأليني. قالت بلهجة آسفة:

– أعرف أن مشاكلي تمنعك من العمل. ولهذا السبب لم أكن أريد أن أخبرك بالأمر. قلت لي إنني إذا شعرت بالحزن وخيبة الأمل فستندم لأنك جئت بي إلى هنا.

– أتذكر ما قلته وهذا ما أشعر به اليوم.

– لا يجب أن تندم على شيء. مهما كان المستقبل، سأحتفظ بذكريات

حلوة عن «قبرص». على كل حال «كارلوس» وأنا سنظل على اتصال. سنراسل بعضنا... لكن... فقط مثل أخ وأخته... خبأت رأسها بين يديها وراحت تجهش بالبكاء كان قلبها يتحطم. فقال «جيلبير» بصوت مليء بالرأفة:

– يا بنتي... آه! يا بنتي. سمعت الباب ينفتح و«كولن» يقول بلهجة آسفة:

– آسف يا عمي. جئت... فقط لأسألك عما إذا كان بإمكاني استعارة سيارتك، لكن... آسف لإزعاجكما. توجهت «سارة» إلى غرفة «أنولا» لتراها قبل مغادرة المنزل. كانت جالسة أمام النافذة تتأمل الحديقة بحزن. سألتها «سارة» لماذا لا تذهب وتجلس في الشرفة. هزت «أنولا» رأسها وانغمست من جديد في تأملاتها. كان النهار جميلا وكانت جبال «أناتوليا» تبدو قريبة من بعضها وراء البحر الأبيض المتوسط. وعن قريب كانت أشجار الزيتون والحمضيات تهتز ببطء. قالت «سارة» لها:

– عزيزتي«أنولا»، لا جدوى لهذا اليأس الكبير. تعرفين الآن أن ابنك الصغير بحالة جيدة. همست المرأة بصوت خفيض:

– لست حزينة بسبب «نيكولا».

– ماذا هناك إذن؟ أخيرًا التفتت المرأة إلى «سارة» وقالت:

– أنت تكرهينني، أليس كذلك؟

– لا أبدًا. لا أحد بإمكانه أن يكرهك. فجأة صرخت المرأة القبرصية –وهي تفتح الباب الزجاجي بسرعة كأنها ستختنق– قائلة:

– إنه لي. لماذا جئت إلى هنا؟ لماذا كان عليه أن يقع في حبك؟ الدموع تتساقط من عينيها. أدارت نظرها متصنعة البحث عن منديل في جيبها. ثم خرجت إلى الشرفة. لم تلحظا وجود «كولن» في الحديقة تحت ظل شجرة الدلب القديمة. تابعت المرأة قائلة:

– بإمكانك أن تأخذيه مني، أنا أعرف ذلك، لكن أرجوك ألا تفعلي ذلك وإلا أنتحر وأقتل ابني الوحيد! أخاف أن أبقى وحيدة، «كارلوس» يعرف هذا، وكان لطفًا منه أن طلب يدي. ومنذ ذلك اليوم وأنا امرأة سعيدة وأقل تخوفًا... توقفت لتمسح الدموع من عينيها بطرف يدها. قدمت لها «سارة» منديلا واقتربت منها حيث تقف بجوار الشرفة. وسمعتها تقول:

– صحيح أننا لا نحب بعضنا... لكننا هنا، الحب ليس كل شيء. فزواج الحب نادر في هذا البلد. سألتها «سارة» بلطف شديد:

– ألا تفضلين أن تتزوجي عن حب. مازلت شابة وأمامك الوقت لتلتقي بشخص تحبينه ويحبك.

– أنت تحاولين أن تقنعيني أن أتخلى عنه... لكني لن أفعل ذلك أبدًا. وانتابتها نوبة بكاء هزت كل كيانها. وغريزيًا أحاطتها «سارة» بذراعها، فراحت «أنولا» تبكي على صدرها كما كانت «سارة» تبكي منذ قليل على صدر «جيلبير». قالت «أنولا»:

– لو لم أكن أخاف من الوحدة لأعطيت «كارلوس» حريته... ابتعدت عن «سارة» وهي تجهش وتمسح دموعها. ثم تابعت:

– هنا المرأة ليست شيئًا دون زوج. الناس يعاملونها بتسامح مع بعض

التعجرف.

– إني أفهمك كليًّا. ضاع آخر أمل لـ«سارة». لشدة خوفها، لن تتراجع المرأة القبرصية عن أمنيتها الوحيدة. والخوف وحده هو المسؤول عن تصرفها... ومن الصعب جدًّا التغلب على هذا الخوف.

– أريد... أريد أن أتزوج في أقرب وقت ممكن. ما كان يجب عليَّ أن أنتظر طويلا... لأنني كنت آمل أن أقع في حب رجل آخر في هذا الوقت... توقفت عن الكلام واحمرت وجنتاها بشدة لإدراكها ما كانت تصرح به.

– لو حدث أنك وقعت في الحب، أما كنت تطلبين من «كارلوس» أن يتراجع عن وعده ويفك العقد؟ ألم تحافظي على سرية الخطبة، لهذا السبب بالذات؟ سكوت «أنولا» كان اعترافًا واضحًا. وأخيرًا نطقت قائلة:

– أنا أعرف فيم تفكرين يا«سارة». لك الحق أن تحاكميني، لكنني لم أقع في الحب وهذا لن يحدث لي؛ لأنه من المستحيل أن ألتقي بالرجال. الزواج هنا يديره الأهل. سأتزوج إذن بـ«كارلوس» قريبًا جدًّا. وهو سيتزوجني لأنه إنسان طيب وصادق. وراحت تبكي فجأة وتضغط بيديها على صدر «سارة». وتقول:

– لا تحاولي أن تأخذيه مني، أرجوك! اقطعي وعدًا بذلك! عديني!

أجابت «سارة» بصوت هادئ:

– أعدك بذلك، يا«أنولا». لا سبب للقلق الآن. لست أنوي محاولة التأثير في «كارلوس». أعرف أن شرفه أهم من سعادته. أنا واثقة

بذلك.

– نعم. إنه متحد بي... متحد بي، هل سمعت؟ وهنا لا أحد يفسد هذا الاتحاد...

– دعينا من ذلك. والآن ما دمت أقل توترًا، عليك أن تذهبي إلى الحديقة وتتمتعي بالهواء المنعش. ترددت قليلا ثم سألت فجأة:

– أنت ذاهبة أيضًا؟ يا لها من فتاة مدللة! إنها رائعة وبإمكانها أن تجذب أي رجل ليقع في غرامها. سيصل «كارلوس» يومًا ما إلى أن يحبها... لكنها عدلت عن هذه الفكرة إذ فكرت في أن الحب الذي يربطها بـ«كارلوس» قوي إلى درجة أنه من المستحيل أن يحب «كارلوس» يومًا ما امرأة أخرى. لكنه سيعيش قرب «أنولا» يشاركها طعامها وأوقات فراغها ويلعب مع أولادهما...

– كلا يا«أنولا». لست ذاهبة إلى الحديقة. «جيلبير» وأنا سنقوم بنزهة بالسيارة.

– سأبقى إذن وحدي؟

– سنعود وقت الغداء. على كل حال وعد «كارلوس» أنه آت إلى هنا في الصباح، ويكون معك.

– ربما، لكنني أعتقد أنه يفضل أن يبقى في المنزل ويعمل هناك.

لم يعد لـ«سارة» ما تقوله. خرجت من الغرفة، فلحقت بها «أنولا». رفع «كولن» الجالس تحت الشجرة عينيه ونظر مطولا إلى وجه المرأة القبرصية المتورم من البكاء. كما لاحظ أن «سارة» بكت أيضًا، لأنه عندما نظر إليها، احمرت وجنتاها وأشاحت بوجهها بعيدًا. التحق

بهما «جيلبير» ودعا «كولن» أن يذهب معها هو و«سارة». لكن «كولن» قال إنه يفضل البقاء هنا في الحديقة حتى وقت الغداء. وبعدها ربما يذهب إلى شاطئ البحر ليستحم. قالت «سارة» للمرأة:

– هكذا سيكون معك رفيق. تساءلت «سارة» في نفسها عما إذا كان «كولن» سيكون سعيدًا بالبقاء مع امرأة قبرصية خجولة بالكاد تنطق كلمة واحدة. فمساء أمس شعر الجميع بارتياح عندما غادرتهم «أنولا» باكرًا لتذهب إلى النوم، بعد أن أمرها «كارلوس» بذلك، بحجة التعب والغم. مفاجأة أخرى كانت بانتظار «سارة» بعد عودتها من النزهة مع «جيلبير» التي دامت ساعتين. إذ وجدت «كولن» و«أنولا» يحتسيان عصير الليمون ويثرثران كأنهما يعرفان بعضهما من مدة طويلة. ابتسمت «سارة» على الرغم من حزنها. كانت تعرف أن «كولن» قادر على جذب أية امرأة بسرعة متى أراد ذلك. إنه شاب وسيم، لكنه ينظر إلى النساء بصورة عامة بلامبالاة. ليس عنده وقت يكرسه لهن ولا يحب حركاتهن المتصنعة. و«جيلبير» كان أيضًا مندهشًا، إذ قال بعدما جلس قرب «سارة»:

– الظاهر أنكما متفقان. هل تشعرين بتحسن يا«أنولا»؟ أجابت بخجل:

– نعم، شكرًا يا سيد «هولغروف» وفي الحال عادت من جديد لتنطوي على نفسها. وفهمت «سارة» أن الفتاة تشعر بالحرية مع «كولن» وحده. سألها «جيلبير»:

– هل تعتقدين أن «كارلوس» سيأتي للغداء؟ إنها الساعة الثانية عشرة

والنصف وهو يعرف أننا نتناول الغداء في الواحدة. قلت له أن يأتي إذا ما كان يرغب في ذلك. لكن «كارلوس» لم يظهر. فصرّحت «أنولا» لـ«سارة» بلهجة حزينة:

– لم يأت لأنني هنا. فهو غاضب مني. آه! إنني واثقة بذلك، خاصة عندما ذكرني عدة مرات بأنني أنا التي وضعت شرطًا لزواجنا، وبإمكانية فسخ الخطبة، إذا صدق ووقع أحدنا في الغرام... توقفت لرؤية التعبير على وجه «سارة» وأضافت بحزن:

– هأنا قد وترت أعصابك. تنفست «سارة» الصعداء وقالت:

– هذا لأن هذا الحديث لا يجدي أية فائدة. ستتزوجين بـ«كارلوس» وأنا بدأت أتقبل الأمر. وسأتخلى عنه نهائيًا. عضت «أنولا» على شفتها ورمقتها بنظرة عاتبة هامسة:

– أفضّل... أفضّل لو أكون ميتة. ابتعدت «سارة» في الحال أمام هذا الوضع الثقيل، لكنها اقترحت بلطف على «أنولا» أن تذهب معها إلى شاطئ البحر. فقالت «أنولا» لها:

– لكننا يجب أن نعود في حوالي الساعة الرابعة لأن «كارلوس» سيأتي ليأخذني إلى المستشفى.

– سنعود في الوقت المحدد، لا تخافي. فضّل «جيلبير» أن يأخذ قيلولة، لكن «كولن» قبل دعوة «سارة» التي أخذتهما بسيارة الكاتب إلى شاطئ البحر. كان الثلاثة في بزة السباحة وبمئزر الحمام. وكان الماء فاترًا. فشعرت «سارة» بارتياح لأنها تسبح وتفرغ رأسها من الأفكار العديدة التي طرأت في الأيام الأخيرة. لم تعد تفكر في شيء ولا في أحد.

«كولن» و «أنولا» يسبحان معًا. أما «سارة» فتوجهت سابحة نحو مجموعة من الصخور تقع في عرض البحر ثم خرجت من الماء وجلست على الصخر، وأغمضت عينيها لتحميهما من انعكاس الشمس على المياه الزرقاء. ومن هناك لمحت شخصًا يسبح وحده بسرعة ومهارة. وتساءلت كم كان هذا الإنسان شجاعًا ويحب المخاطرة. لا شك في أنه رجل، فالمرأة لا تجرؤ على المغامرة بعيدًا!

نظرت في مكان آخر، ورفعت يدها لترد بإشارة على «كولن» الذي كان ممددًا على الشاطئ قرب «أنولا»، وعلى بعد كبير من مكان «سارة». لكن فجأة شعرت برغبة في أن تكون وحيدة كليًا ولا يراها أحد. فنهضت وراحت تبحث عن مكان تختبئ فيه وراء الصخرة. جلست هناك وعادت تتأمل الرجل الذي يسبح بثقة وإتقان. وتهيأ لها أنه يتوجه نحو تجويف في الصخر، لكنه عدل عن ذلك واستدار ليسبح نحو الشاطئ. وبينما كانت تنظر إليه بقلب نابض، قال لها حدسها إن هذا الرجل لابد أن يكون «كارلوس» بالذات. خرج من الماء طويلا، نحيلا، أسمر، وقال:

– «سارة» هل أنت وحدك؟ هزت رأسها وقالت وهي تشير باتجاه الشاطئ، وما وراء الصخور:

– «كولن» و«أنولا» على الشاطئ. لم أرَ سيارتك، أين أمضيت طيلة فترة ما بعد الظهر؟ تذكرت في هذا الوقت بالذات أنها لم تعير انتباهًا للسيارات الموقوفة خلف الشاطئ.

– جئت إلى هنا في الثامنة صباحًا.

– في الثامنة؟! هل سيواصل «كارلوس» هذه الحياة المتوحدة المحرومة من العطف والحنان، ما عدا حب ابنته؟ شعرت بألم حاد في حنجرتها وقالت:

– حبيبي، ألم تتناول طعام الغداء؟ جلس قربها فارتجفت. ثم أجاب:

– لست جائعًا. نظر بإعجاب إلى جسم «سارة» الأسمر، لكنها أزاحت رأسها خجلا، فسألها:

– يا حبي، فيم تفكرين؟ رفعت وجهها نحوه ولاحظ الدموع تلمع في عينيها. فأخذها بين ذراعيه وبدا عناقهما الصامت كأنه تحد كبير لكل الآلام والعذابات.

– آه! «كارلوس»... كيف بإمكاني أن أعيش دونك؟ لم تكن تنوي قول هذا الكلام لأنها لا تريد أن يتألم. فقد وعدت «أنولا» أنها لن تحاول أن تأخذ «كارلوس» منها. قال بصوت أجش ومتقطع ألمًا:

– وأنا، كيف سأعيش دونك؟ يا حبيبتي... عانقها بشغف وحرارة. كيف بإمكانها مقاومته؟ فصرخت قائلة:

– «كارلوس»... تخبطت كي تدفعه عنها وقالت:

– «كارلوس» حبيبي، لا تدعني أستسلم لك، أرجوك. كان صوتها حزينًا جعله يندم على ما فعله وتركها. ثم وضع يده على شفتيه وقال:

– يا«سارة» الجميلة، الناعمة، سامحيني. نظر إليها مطولا في حنان شديد. فقالت لتغير الجو:

– «كارلوس»، أشعر بالجوع، ما رأيك لو نأخذ شيئًا في المقهى القريب من هنا؟ ابتسم ووافق ثم أجاب:

– ليس معي مال هنا. إنه في السيارة. وضحكا لما لاحظا أن لا أحد منهما يحمل المال في هذه الظروف. لكنه وعدها بأنه سيطلب من خادم المقهى الذي يعرفه جيدًا أن يدفع له في وقت آخر. توجها نحو الشاطئ بخطى بطيئة، ويدها بيده. كان «كولن» و «أنولا» جالسين على الرمال ينظران إلى الأفق، كأنهما زوجان يمضيان عطلة على شاطئ البحر. لم ينظرا باتجاه «سارة» و«كارلوس» اللذين قررا دخول المقهى دونهما. ونصحهما الخادم أن يتذوقا السمك الطازج الشهي مع البطاطا المقلية والسلطة مع الجبن. فوافقا. وبعد قليل قالت «سارة» وهي تراقب «كارلوس» وهو يأكل بشهية:

– يجب عليك أن تطلب صحنًا آخر.

– صحيح أنني لم أكن جائعًا، لكني عندما التقيت بك تغير الأمر. لماذا ابتعدت عن «كولن» و «أنولا» وجئت تسبحين قرب الصخور؟

– أردت أن أكون وحيدة.

– وأنا أيضًا. لذلك ذهبت أسبح بعيدًا لكن عندما رأيتك كنت تبدين غاضبة جدًا.

– صحيح. كنت أشعر بالضياع والوحدة. بعد صمت، قالت بصوت مخنوق:

– أنا سعيدة جدًا لأني كنت هناك عندما خرجت من الماء.

– لم أكن أصدق ما رأته عيناي. تنهد ثم قال لها إنه حان له أن يذهب

لأنه وعد «أنولا» أن يأخذها إلى المستشفى.

– أعرف ذلك. لقد قالت لي إنها تريد أن تكون في الفيلا قبل الساعة الرابعة. أعتقد أنها بدأت تقلق الآن. قال «كارلوس» للخادم إنه سيذهب إلى سيارته ليأتي بالمال كي يدفع له ثمن الغداء. لكن الخادم لم يقبل قائلا:

– تدفع لي في المرة المقبلة. ثم خرجا متوجهين نحو «كولن» و«أنولا» الجالسين بهدوء على شاطئ البحر. بعد أربعة أيام قال «جيلبير» لـ«سارة» بلهجة غريبة بينما كانا جالسين في مكتب الكاتب:

– هل لاحظت إلى أية درجة تغيرت «أنولا»؟ كان الكاتب قد توقف عن الكتابة بعدما نظر إلى «كولن» و«أنولا» الجالسين في الحديقة. نظرت «سارة» باتجاههما وقالت:

– من الصعب عدم ملاحظة ذلك. وأعتقد أن «كولن» هو المسؤول عن هذا التغير. إنه يشفق عليها... اسمع، إنها تضحك بفرح. كل هذا لم يكن واردًا في بال أحد منذ بضعة أيام. و«كارلوس» أيضًا لاحظ هذا التغير لدى خطيبته وكان محتارًا. فقد دعا الجميع إلى حفلة عشاء في منزله، وقال لـ«سارة»:

– من أين أتت «أنولا» بهذا الفستان؟ لا أظن أنه لك لأنك أنحف منها.

– اصطحب «كولن» «أنولا» إلى «نيقوسيا» في الصباح فاشترت هذا الفستان وفستانًا آخر أيضًا... اندهش «كارلوس» وقال:

– كانت دائمًا ترتدي الثياب الجدية وما زالت تلبس ثياب الحداد

على المرحوم زوجها.

– لم يكن لديها فعلا إلا ملابس سوداء، لكن «كولن» شجعها على شراء ملابس ملونة ليرفع من معنوياتها. رفع «كارلوس» كتفيه وقال:

– أخيرًا بدأت «أنولا» تتفتح. ظهرت حينئذ «ماريا» الخادمة وأعلنت أن العشاء جاهز. «كورني برودهورست» كان مدعوًّا أيضًا وراح يتحدث مع «كارلوس» و«جيلبير»، بينما كانت «سارة» تتحدث مع زوجة «كورني». لكن انتباهها كان محصورًا في «كولن» و«أنولا» الجالسين أمامها. كانا يتحدثان بهدوء. ومن وقت إلى آخر، كانت المرأة تحمر وجنتاها وعيناها تتلألآن فرحًا. وسمعت «سارة» نفسها تقول: «كم إنها جميلة حقًّا! لكنها سرعان ما أدركت أمرًا خطيرًا. وكانت تتساءل: هل باستطاعة «كولن» أن يخدع هذه المرأة البريئة»؟! سأل «كارلوس» «سارة» بلهجة قلقة:

– هل أنت على ما يرام يا«سارة»؟ تمكنت من مقاومة ارتجاف صوتها وقالت:

– نعم أنا على ما يرام. وفي اليوم التالي، كان «كولن» وحيدًا، فقالت «سارة» له بلهجة اتهام:

– أعرف أنك تتآمر على «أنولا»، لكنني لن أدعك تواصل مخططك. هل أنت دون شفقة ولا رحمة؟ سيتحطم قلبها يوم أن تغادرها. كيف يا«كولن» تمكنت من خداعها؟ تساءل «جيلبير» عما يجري بينهما ووصل إلى الشرفة وراءها، لكنها لم تلاحظ وجوده في الحال. فتابعت تقول:

– لا شك في أنك أقدمت على عمل شنيع، أنا واثقة بذلك. راحت الدموع تتساقط من عينيها وهي تضيف قائلة:

– لم أكن أتصور أنك قادر على مثل هذا العمل الكريه! لن أعذرك أبدًا. قال «كولن» أخيرًا:

– «سارة»، هل بإمكانك أن تشرحي لي ماذا تعنين بهذا كله؟ أنا آسف لأني لم أفهم شيئًا.

– أنت تعرف جيدًا ما أريد قوله! فجأة لاحظت وجود شخص وراءها. فالتفتت إليه وقالت:

– «جيلبير»! كيف بإمكان «كولن» أن يفعل هذا؟ جعل «أنولا» تقع في حبه، بغية أن تفسخ خطبتها مع «كارلوس». لاحظت ذلك في عينيها مساء أمس، خلال حفلة العشاء. إنها بريئة إلى درجة أنها تعتقد أن «كولن» جدي في الأمر، لكنها ستصبح وحدها من جديد، فـ «كولن» سيرحل عنها. ران صمت متوتر، قاطعه «جيلبير» سائلا «كولن» بصوت قاس ما سمعت «سارة» مثله من قبل:

– هل صحيح هذا الكلام يا«كولن»؟ هذا واضح أنك أوليتها اهتمامًا كبيرًا منذ وصولها إلى هنا، فلم يسبق أن رأيتك تهتم بامرأة هكذا من قبل.

– هذا صحيح يا عمي... ذلك لأنها المرة الأولى التي أكون فيها مع امرأة. صرخ «جيلبير» و«سارة» في آن واحد:

– أنت جاد! لكن لم يمر أسبوع على معرفتك بها. أجاب «كولن» بسخرية:

– أعتقد أنك لم تأخذ وقتًا أطول عندما وقعت في غرام عمتي «سارة».

قالت «سارة» بصوت مرتجف:

– هل... هل تنوي الزواج بـ«أنولا»؟ «أنولا» امرأة شديدة الحساسية وسريعة التأثر.

– أعرف ذلك. لن أدعها تتعذب أبدًا. ولماذا أفعل ذلك؟ لم ترد عليه ثم نظرت إلى «جيلبير» وقالت:

– هل طلبت يدها؟

– لم أطلبها بعد. هذا صعب ما دامت مخطوبة لرجل آخر.

– هل فتحت موضوع فسخ الخطبة؟

– قلت لـ«أنولا» إن عليها أن تفسخ الخطبة. وبالفعل أعتقد أنها في الوقت الحاضر تهب «كارلوس» حريته.

– منذ قليل جاء «كارلوس» واصطحبها إلى المستشفى لتزور ابنها الذي سيعود إلى المنزل خلال يومين.

– ونصحتها أن تكلم «كارلوس» في الأمر... قال «جيلبير» بصوت جاف:

– هل هذا لأنك ترغب في الزواج بها؟ أجاب «كولن» بصدق وثقة:

– طبعًا. قال «جيلبير» أخيرًا:

– سيكون هناك عرسان بإذن الله!

– المشكلة هي أنني مضطر إلى العودة إلى «إنجلترا» لمباشرة عملي. لو كنت أعرف مسبقًا أنني سأتزوج خلال وجودي في «قبرص»، لكنت طلبت الحصول على عطلتي كلها. وشرح لهما أن «أنولا» ستلتحق

به في «إنجلترا» وستعيش عند جديه بانتظار موعد الزواج. أما «سارة» فكانت تشعر بحزن وشعور بالذنب، بدلا من أن تكون فرصة لكون «كارلوس» حرًا طليقًا، وبإمكانه أن يتزوجها... لكن هل سيكونان سعيدين حقًا؟... وبعد وقت قصير تبدل منظر الغسق عندما كانت «سارة» وزوجها يتمشيان، متعانقين. النسيم الآتي من البحر ينشر أريجًا غريبًا في الهواء. أصوات الماشية تأتي من بعيد والطيور تغني فوق أشجار الزيتون. ومن الشرفة المتلئة أزهارًا صرخ صوت يقول:

– مساء الخير، يا سيد «كارلوس». مساء الخير يا سيدة «كارلوس».

أجابا معًا:

– مساء الخير يا «ديميتريوس». سأل «كارلوس» بصوت ناعم وهو يضغط على أصابع «سارة»:

– ماذا هناك يا حبي؟ بقيت فترة صامتة لا تعرف بماذا تجيب. تزوجا منذ ثلاثة أشهر وعلى الرغم من قوة حبهما لم يعرفا السعادة التامة إلا في أوقات مميزة. أخيرًا قالت متنهدة:

– لست متأكدة أني أرغب في رؤية «كولن» و«أنولا».

– وأنا أيضًا، لكننا اضطررنا إلى قبول دعوة «جيلبير» إلى العشاء. وكذلك سنضطر إلى أن ندعوهما إلى العشاء بدورنا. هل أنت على استعداد لمواجهة هذه التجربة؟

– نعم... توقف ونظر إليها ثم عانقها بحنان وقال:

– حبيبتي، لا يمكننا أن نغير شيئًا. المهم هو أن نحاول أن نكون سعيدين.

– لكننا سعيدان. لم يرد، فتابعت تقول بلهجة آسفة:

– أعرف أنني أفسد حياتنا التي بإمكانها أن تكون رائعة، أليس كذلك؟ لكن لا يمكنني أن أنسى ما فعله «كولن» كي نتمكن من الزواج. أخشى ألا يكون زواجه ناجحًا؛ لأنه غير مؤسس على الحب، لا شك في أن «أنولا» تعرف الآن أن «كولن» لا يحبها. هز «كارلوس» رأسه وتابعا سيرهما... يحبان أن يمشيا كل مساء بعد عودتهما من منزل «جيلبير». النسيم يلوح أوراق شجر الحمضيات. القمر والنجوم تلقي أنوارها الفضية على البحر والجبال. يقومان بهذه النزهة كل مساء؛ لأن «سارة» ما زالت تعمل عند «جيلبير». ستواصل عملها حتى ينتهي من تحقيق كتابه.

وفي مساء اليوم التالي كانت حديقة الفيلا مضاءة وفي الشرفة ثلاثة أشخاص. شعرت «سارة» بغصة في قلبها. هل ستقرأ خيبة الأمل على وجه «أنولا» والندم العميق في وجه «كولن»؟ فجأة سمعا قهقهة امرأة تضحك بفرح. ثم انضم إليها الرجلان. كانوا ما زالوا يضحكون عندما وصلت «سارة» و«كارلوس». وقف «جيلبير» لاستقبالهما وقال:

– اسمعوا هذه القصة... بعد ثلاث ساعات، استأذنت «سارة» و«كارلوس» من الحضور ليعودا إلى منزلهما. فقد دعا «كارلوس» «جيلبير» والزوجين إلى العشاء في اليوم التالي. وما إن أصبح «كارلوس» خارج الباب الحديدي حتى نظرت إليه «سارة» وقالت:

– هل رأيت كم يعشقان بعضهما؟

– كيف لا ألاحظ ذلك يا حبيبتي؟ أشعر بارتياح كبير تجاههما.

– لم أكن أصدق أنه تزوجها عن حب. لم يحاول إنكار ذلك عندما اتهمته بخداع «أنولا». لماذا إذن؟ توقفت «سارة» متحيرة وقالت:

– هل تزوجها حقًا عن حب؟ أم أنه أحبها بعد الزواج؟ أجاب «كارلوس» بعد لحظة من التفكير:

– لن نعرف هذا أبدًا... لا سبب لأن نقلق عليهما بعد الآن. إنهما سعيدان... توقف عن متابعة الكلام وأمسك بذقن زوجته ورفع وجهها نحوه وقال:

– والآن، لم يعد هناك شيء يمنعنا من أن نكون فعلاً سعيدين. هزت رأسها وابتسمت وشعرت بارتياح وفرح يوم حولت كل ثروتها التي ورثتها عن والدي «كارلوس» إلى «ريّان». همست تقول عندما أمسك زوجها يدها وشد عليها بحب وشغف:

– لم يعد هناك أي حاجز أمام سعادتنا، يا حبي.

تمت بعون الله